هند

إبراهيم الإبياري

الهند

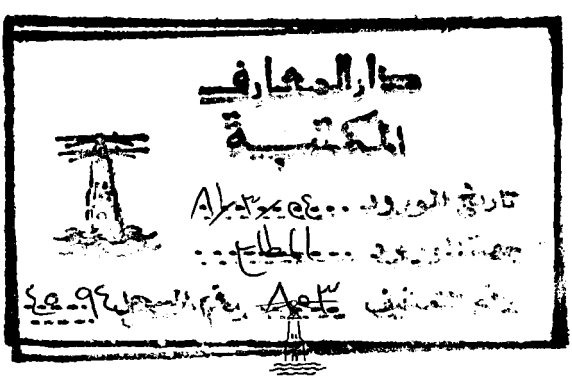

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

الإهـــداء

إلى اللائى يدخلن الحياة مظلومات . . ويخرجن من الحياة مظلومات . . وإذا حدّثوا عنهن قالوا : ظالمات .

إلى هؤلاء . . أهدى :

« قصة هند »

إبراهيم الأبيارى

تقديم

هذه هى قصة هند بنت عتبة ، جَمَعتْ كتبَ التاريخ ، والكتب التى تقرب من أن تكون تاريخاً ، أخباراً لها متفرقة لا تستقيم أن تكون حلقات متصلة تصل لنا حلقات عمرها بعضها ببعض . ثم إن هذه الكتب على هذا تهمل الكثير من حياتها لا تذكره ، على حين تُكثر فى هذا القليل الذى تذكره أخذاً وردًّا فتبدو وكأنها ذكرت شيئاً كثيراً .

وهذا القليل الذى ذكرته الكتب يمثل لنا جوانب مغلقة من حياة هند،لا تنكشف عن تفصيل واصف ، وإنما تنطوى على أخبار مبتورة ، ونتفٍ غير موصولة ، وكأنها رءوس المواضيع .

ولكى تصور من هذا كله قصة ، عليك أن تحمِّل الأخبار دلالتها ، وأن تأخذ من تلك الدلالات مغازيها . وما هى بالأخبار الكثيرة فتتوفر لك الدلالات وتتوفر لك المغازى ، فتَغْنى عن الكد فى التوسع فى الدلالات والتفريع فى المغازى ، إذ كلما انضم خبر إلى خبر وكمَّل خبر خبراً انساقت الدلالات متصلة وأملت عليك مغازيها فى يُسر .

وقصة هند على هذا كان يُعْوِزها هذا الجهد ، يعوزها أن تكون لتلك الأخبار القليلة دلالات ، ويعوزها أن تكون لهذه الدلالات مغاز ، ثم يعوزها بعد هذا وذاك ثوب من الخيال ينضم على تلك الحقائق بدلالاتها ومغازيها ، تتطلع إليها فيه فإذا هى خيال من الأخمص إلى الرأس ، وتستشفها فإذا هى مغزى عن دلالة عن خبر .

وما يتفق مستنبط ومستنبط فالأمور تبدو لك على غير ما تبدو لسواك ، أنت بحجتك وهو بحجته . ولا ضير من أن يختلف الرأى ولكن الضير ألا تستقيم الحجة .

وما إن استقامت لى حجتى على ما اجتمع لى من أخبار هند حتى جمعت إلى تلك الدلالات مغازيها ، فإذا هذا كله متصل وإذا أنا من هذا كله بين يدى قصة لهند .

أجريت على لسان هند ما لم تروه كتب التاريخ ، ولكن ما أملته تلك الدلالات ، وأجريت على لسان هند من شاركوها هذه القصة ما لم تروه كتب التاريخ ، ولكن ما أملته تلك الدلالات . وجعلت تلك الدلالات جميعها تملى ما فيها من مغزى ومغزى .

مِلْتُ شيئاً عن الخبر إلى ما يساويه لأنفخ فى روع القصة . وما حمّلت بالذى فعلت التاريخ ما لم يقله ، فالتاريخ فى جوهره نتائج قبل أن يكون تمهيداً لتلك النتائج . ولقد أبقيت على تلك النتائج ونظرت شيئاً إلى ذلك التمهيد ، لم أفعل ذلك إلا فى القليل

الذى لا يكاد يذكر ، وعذرى فيه أن جوهر التاريخ فى هذا الذى لا يكاد يذكر ، لم يُمَس .

وما بقى بعد هذا فهو التاريخ بنتائجه وتمهيده ، لم أزد عليه غير تصوير ذلك أحداثاً وتصوير ذلك رُؤى ، وتصوير ذلك كلاماً ، وتصوير ذلك نقاشاً .

وبعدما أرضانى أن أكون بما فعلت قد أرضيت هنداً ، ثم ما أرضانى أن أكون قد أرضيت المعنيين بهند ، الذين يريدون أن يعرفوا هنداً قصة بعد أن عرفوها تاريخاً .

وفرق بين هند قصة وبين هند تاريخاً . فهند فى الأولى يعرضها عليك القاص ، تحدثك حديث نفسها الخاص مع حديثها العام ، تحدثك عما وجدت وعما أحست ، وعما كان لها وعما كان عليها وعما كسبته من البيئة وعما فقدته فيها . فهى تحدثك عن هذا وعن شبه هذا ، وهند تاريخاً يسرد لك المؤرخ جملة من أخبارها صامتة لا يجرى بها لسان هند ، ولا ألسنة الذين شاركوا هنداً .

وليس أحب إلى نفسى بعد هذا من أن أكون قد وفقت فى أن أعرض هنداً قصة .

إبراهيم الأبيارى

١

على طرف البادية – بادية مكة – تطل يمنة فتتراءى لك البيوت قائمة ضئيلة على رقعة من الأرض ضئيلة ، تتضام فتبدو وكأنها بيت ، وتفترق فتخالها طللا بعد طلل ، وتعلو فلا تكاد تبلغ من العلو شيئاً ، وتتطامن فتكاد تستوى مع الأرض .

وتطل يسرة فتتراءى لك البادية فسيحة ممتدة ، تنبسط رمالها فى ناحية ، فتبدو والريح تداعب حبات رمالها بحراً تنساب مياهه هيّنة لينة ، وتُجْبِلُ فى ناحية فتبدو جبالها مع تموج الرمال من تحتها كأنها سفن جارية .

وبين هذا وذاك أعشاب هنا وهناك ، قد ضربت حولها خيام ، وانتشر بينها أناس وأغنام ، وربطت فى مرابطها إبل وأنعام ، وتختلط جلبة الناس بثُغاء الأغنام وهدير الإبل وخوار الأنعام ، وتحمله إليك الريح مع عصفها فتخاله من بعض أصواتها ، يوحشك وأنت على ذاك الطرف من البادية هذا الذى تراه يسرة وتسمعه ، ويؤنسك وأنت على ذاك الطرف من البادية ، هذا الذى تراه يمنة وتشهده .

وبين هذا الأنس وتلك الوحشة قامت خيمة كبيرة التفت حولها خيام متفرقة لا تكاد تقع عليها عينك حتى تحس أنها لأسر ذات جاه ويسار ، أراد ذووها

أن يبعدوا عن زحمة المدينة فلا يساءون ، وألا يهبطوا إلى مضارب السوقة فيضارون ، وتخيَّروا من هذا الوادى بين المدينة والبادية هذا المكان ليأنسوا بالحياة الهادئة أنساً صافياً .

* * *

٢

وينبلج الصبح عن جبينين وضّاءين مشرقين ، جبين أخذ طريقه من الأفق إلى كبد السماء ، وجبين أخذ طريقه على الأرض يسعى بين تلك الخيام ، جبين كلما درج علا فأبعد ، وجبين كلما درج دنا فقرب ، جبين لا يلبث الناس أن تنخزل عيونهم عنه ، وجبين لا تفتأ عيون الناس عالقةً به ، جبين لا ترى منه غير صفحته ، وجبين قد استوى على قامته .

ويُشغل الناس بالذى هو أدنى عن الذى هو أبعد ، وإذا هم يتهامسون وإذا هم بعد همسهم يفصحون ، وإذا هم جميعاً مع إفصاحهم معجبون ، وإذا أشدهم إعجاباً به شاب من القوم أغر الوجه جميل الطلعة فارع الطول حلو الحديث ذو لسان شاعر .

لقد طلعت الشمس مع الصبح وبرزت هند مع مطلع الشمس فى الصبح ، وما شغل الناس بالشمس كثيراً ، فهذا شىء قد ألفوه ولن يفلتهم ، ولكنهم شغلوا بهند كثيراً فهذا شىء لم يألفوه وإن هم سهوا عنه أفلتهم ، وزادهم به شغلا حديث هذا الهوى الجديد الذى ربط بين هند وهذا الفتى مسافر ابن عمرو .

وكان الناس يعدّون على هند خطواتها صغيرة ، فلقد كانت من بيت مرموق ، وكانوا أكثر عدًّا لخطواتها . حين شبت ونهد ثدياها . لهذا الحديث

حديث الهوى الذى عُرف لها منذ عرف الناس جمالها . ولقد كانت هند كلما استوى لها عودها استوى لها جمالها ، فإذا هى بعدُ فتاة هيفاء ممشوقة القد مشرقة الوجه ، قد ملأها جاهها وبهاؤها زهواً وخيلاء فعزّت ، ورأت الناس من حولها يكبرونها فزادت عزة ، وإذا هذا وذاك يدخل عليها نفسها فتشمخ ، ويدخل عليها قلبها فتستمسك ، ويدخل عليها عقلها فتعتد ، وإذا هى بهذا كله كبيرة النفس والقلب والعقل .

ومثل هند فى جمالها ونفسها وقلبها وعقلها ما كان لينزلق مع الهوى فى مزالقه كلها ، ويهون فى شىء ويستعصى فى شىء ، إن هان لم يُسِف ، وإن استعصى فلأنه لم يرض أن يُسف .

ولكنه كان على كل حال هوى ذاقه مسافر عنيفاً شديداً ، وذاقته هند رخيًّا حميداً ، فما أنست هند بمسافر أنسه بها ، ولا شبعت من مرآه شبعه بمرآها . فلقد كان مسافر شابًّا من الشبان الذين يرصدون هندًا أنّى برزت وأنى أطلّت فامتلأت بها عيناه وانحدر ما بعينيه إلى قلبه فملأه ، ولكن هنداً كانت من الفتيات اللاتى لا يبصرن غير خطواتهن على الأرض ، وإن خرجن فلشأن ذى بال يلهيهن عن النظر إلى الرجال ، وإن لزمن بيوتهن فالحجب دونهن .

فهى لهذا لم تمتلئ عيناها بمسافر فيفيض ما بعينيها إلى قلبها فيملؤه ، ولكنها قد امتلأت أذناها بمسافر فعرفت عنه شيئاً يستهوى النساء . فما من شك فى أن هنداً جلست إلى جارات لها تستمع إليهن وتحدثهن . وحديث النساء لا يكون أكثره عنهن ، وما نشك فى أن حديث مسافر كان هذا الأكثر من حديث هؤلاء الجارات إلى هند ، وما نشك فى أن هنداً رأت مسافر بن عمرو عفواً فى خرجة لها من الخرجات ، قبل أن تمتلئ أذناها بحديثه ، وما نشك فى أنها رأته قصداً

بعد أن سمعت من حديثه .

ولقد وقع حب مسافر فى قلب هند ، قد يكون ذلك عن تلك الأسباب التى قدمنا وقد يكون عن غير تلك الأسباب .

وجرى هذا الحب يُسرف فيه مسافر وتقصد فيه هند ، يُوَلَّهُ به مسافر وتعيش به هند غير مُوَلَّهة ، ويشيع عن مسافر حبه ويُنْذَرُ به قوم هند فيتشددون ، فيزيد ذلك فى وله مسافر ويشتط ، ويبلغ هذا هنداً فتحتاط لنفسها وتدبر لأمرها ، فلقد كان لها مع هذا الحب قلب ونفس وعقل ، ولم يكن لمسافر مثل هذا القلب وتلك النفس وذاك العقل ، ثم هو رجل لا يضيره أن يقال عنه ، وهى فتاة يضيرها أن يقال عنها .

ولكنهما على هذا كانا يلتقيان لقاء خاطفاً غير متلبث يقول لها مسافر شيئاً وتقول له هند شيئاً ، يفضى مسافر بحبه وتفضى هند بحرجها ، لا يقوى مسافر على غير ما يقول ولا تقوى هند على غير ما تقول .

وإذا الأمر بين مسافر وهند يزداد حرجاً فمسافر مُوَلّه لا يملك أمره ، ثم هو شاعر يملى قلبه على لسانه ، والحديث إذا لم يجاوز القلب استسر فإذا ما ملكه اللسانُ شاع .

وهند عرفت الحب ولم تعرف الوله . . وضاقت بالحرج فضاقت بالحب تخافه وترغب فيه ، استوت فى قلبها المخافة والرغبة أولا ، ثم طغت المخافة على الرغبة ثانياً فإذا هى تستقر لتنسى .

ولكن هذا الإحساس المضطرب من ورائه محب يهيج شطره ومن ورائه أهل يهيجون شطرهم ، وهند فى إحساسها هذا لا تفتأ تسمع من مسافر ما يوقظ حبها ولا تفتأ تسمع من أهلها ما يوقظ خوفها ، وكان مسافر واحداً وكان أهلها

كثرة ، وكان مسافر بعيداً عنها شيئاً فلا يبلغها من قوله إلا القليل ، وكان أهلها قريبين فهى تسمع منهم الكثير. من أجل ذلك كادت هند أن تنسى مسافر بن عمرو.

وحين بلغت هند أن تنسى بلغ مسافر أن يطيش ، وإذا هو فى طيشه يقول ويسمع عنه الناس فينقلون.

فيلتفت أهل هند إلى مسافر ولا يلتفتون إلى هند ، يلتفتون إليه ليقطعوا لسانه وهم يعنون أنهم قاتلوه.

ويستحيل حب هند لمسافر إشفاقاً عليه ، فلقد ارتضت لنفسها ما فعلت ولكنها لم ترتض لقومها أن يفعلوا به ما أرادوا ، وما دخل عليها مسافر قلبها إلا حين فتحت له هند هذا القلب ، وما كانت به ضجرة ، ولكن الحياة من حولها هى التى أضجرتها به ، ولكن هذا الضجر بمسافر ما كان ليدفعها إلى أن تجيز لقومها ما هَمُّوا به ولا إلى أن تسكت عن هذا الذى هموا به.

وكانت تملك أن تخرج مستخفية فخرجت ، وكانت تملك أن تلقى مسافراً على خفية فلقيته ، وكانت تملك أن تبصر مسافراً فأبصرته وإذا مسافر يخرج عن هذا الحى إلى بلد بعيد يحمل معه حبه ويحفظ على نفسه حياتها ، تاركاً للأيام أن تقضى فى حبه.

وأكثر الناس رجاء المحبون وأقواهم أملا الموطون. وهكذا كان مسافر ذا رجاء وذا أمل ، عاش على البعد يتنسّم أخبار هند ويتلقّف من أفواه الغادين ما يقولون. وهو بهذا قانع طامع ، يغلبه القنوع فيسكن ويغلبه الطمع فيهيج مضطرباً يستقر ساعة ويثور أخرى.

* * *

٣

لقد صدَقَت هنداً نفسها فى شىء وكذبتها فى شىء فلقد صدقتها حين ظنت أنها خرجت إليه مشفقة عليه ، منذرة إياه بما يدبر له ، ولقد كذبتها حين صورت لها هذا الخروج على صورته تلك ليس وراءها مزيد .

لم تدرك هند أن إشفاقها على مسافر هو هذا الحب الذى أرادت أن تكتمه لتنساه ، سمّته بغير اسمه لتقنع نفسها أن زمام أمرها بيدها لم يفلت منها حزمُها .

وهكذا يخادع المحبُّون أنفسهم حين يظنون أنهم مالكون ، أو ينسون فإذا هم حيث لم يتحولوا عن مكانهم وهم يظنون أنهم متحولون .

لقد خافت هند أن تفجع فى مسافر فتفجع فى حبها ، وقد سكتت هند عن مسافر خوفاً وكبراً ولم تسكن قلًى وكرها ، لقد كانت تحب مسافر وتخشى أهلها أن يُسيئوا إليها فى كبرها وتخشى هى أن تُسىء إلى هذا الكبر الذى تعتزّ به . ولكنها على هذا كانت محبة وكانت عاجزة عن أن تقضى فى هذا الحب بما تريد ، فتركت للأيام أن تقضى هى بما تريد . ترجو هى الأخرى وتأمل ، مثل مارجا مسافر وأمل .

وكانت تحب أن يبقى مسافر قريباً منها ولايبعد عنها . . وفرق بين أن يعيش مسافر معها فى بلد وبين أن تعيش هى فى بلد ويعيش هو فى بلد آخر .

فهند كانت تحب الحياة لمسافر لاله وحده ولكن لها هى الأخرى معه ، وهى

حين خرجت إليه تستملى عن إشفاق . كانت تستملى عن حب ، وهى حين حرصت على حياته حرصت على حبها فى ظل حياته .

ومانظن هنداً صفت لها الحياة حين بعُد عنها مسافر كما لم تصف الحياة لمسافر حين بعد عن هند .

ومرت الأيام وما أتاحت الفرصة لهند كما لم تتحها لمسافر . فمسافر حيث هو بعيد ، وهند كما هى أمرها فى يد أهلها وما يملكها أن تفعل غير ما يريدون .

والرجل حين يحمل همًّا واجد له فُرجة فيما يأخذ ويعطى وواجد له فرجة فيما يتحدث به إلى الناس دون أن يخشى كيداً ، وواجد له آخر الأمر فرجة فى صديق يسر إليه وينصح له .

ولكن هنداً حين حملت هذا الهم لم تكن تأخذ وتعطى فتجد فرجة ، ولم تملك أن تتحدث به إلى جارات لها فما أخشاها من كيدهن ، وهى آخر الأمر لن تأمن على هذا السر صديقة فتملكه منها .

وانطوت هند على ما تُضْمر يعلمها الصبر جلداً ويعلمها الصبر استمساكاً ويعلمها الصبر عناداً . وإذا هى بعد هذا جلدة مستمسكة عنيدة .

ويشق الأمر على مسافر فيحاول أن ينسى فلا يملك ، ويحاول أن يصبر فلا يُرزق الجَلَد فإذا هو هلوع جزع متداع .

وينقل الناقلون إليه أن هنداً على حالها لم تنس فيمّالك ، وأنها على حالها لم تتزوج فيشجع وإذا هو على هذا مطمئن ذو أمل وذو رجاء .

وينقطع الناقلون عنه فتثور ظنونه إذ أسرع الناس إلى إساءة الظن بالمحبون فهم حريصون على أن تجرى الأمور وفق ما يرسمون ومايتخيلون . فإذا حادت يمنة أو يسرة حمَّلوها مالاتحمل وأفسد عليهم التأويل نفوسهم وخرجوا من ظن

إلى ظن ، فإذا هم أبعد ما يكونون عما كان .

ولكنهم على هذا الغلو فى الانحدار أسرع الناس إلى العودة ، ترضيهم كلمة وتسكن روعهم لمحة .

ولقد قلق مسافر ما قلق وسكن بين هذا القلق ما سكن ، ولقد كان حين يقلق يملك السبب فى انقطاع أخبار هند عنه ، وكان حين يقنع يملك السبب فى أن هنداً قالت له وهى تودعه محرجة عن حبه إنها باقية على عهده حتى يأذن الله بالفرج .

* * *

٤

ومضت الأيام تقطع وتصل ، تقطع ما بين هند وبين مسافر وتصل ما بينها وبين زوج دخل عليها الحياة خاطباً ورضيه أهلها .

ولو ملكت هند أن تصل ما انقطع لملكت من قبل أن تصل حبلها بحبل مسافر ، وكما كانت على الأولى مقهورة كانت على الثانية مقهورة ، تظهر الرضا هنا كما أظهرته هناك ، وما كان بها رضى عن بعد مسافر عنها وما كان بها رضى عن قبول الفاكه بن المغيرة زوجاً لها .

ويستقر فى نفس هند كِبْرُها المغمور ليستحيل عناداً ، عناداً لا تملك أن تشهره على أهلها ، إذ لو فعلت لنالت من كبرها ، ففقدت شيئاً تعتز به ، ولكنها أرخت له يضطرب فى نفسها وأرخى له الزمن يقوى ويتمكن .

أحس منها ذلك زوجها الفاكه فأمسكها على قلق ، وأحست هند من زوجها قلقه فعاشرته على قلق .

وكان الزوج كريماً مضيافاً ، يبيح بيته للطارئين والطارقين يلجونه أنّى شاءوا طلباً للقرى وطلباً للمأوى .

ولقد وجد الزوج مايُسَرِّى به عن قلقه فى لقاء هؤلاء جميعاً والتحدث إليهم وكانوا يزحمون عليه نهاره وشطراً من ليله ، فإذا آوى إلى فراشه آوى إليه بجسم مكدود وفكر مشغول يكاد معها ينسى قلقه بهند .

وما وجدت هند ما يجده الزوج فتنسى قلقه بها وقلقها به ، بل لقد وجدت فى شغل الزوج عنها ما يزيدها قلقاً . ونفس هند على حب قديم دفنته فى قلبها ولم تطرحه عنه . وهى إن لم تأنس بجديد يدخل عليها نفسها يسرى عنه استيقظ ما كان مدفوناً فى نفسها . وهكذا صحا حب هند لمسافر بعد ما كان قد رقد وصحا فيها عجزها عن أن تملك فى أمرها شيئاً ، فزادها هذا وذاك قلقاً فوق قلق ، واستحال ذلك عناداً إلى عنادها يضطرب فى نفسها ، ولاتملك أن تشهره على زوجها مخافة أن تنال من كبرها حين تتيح لخصومها أن يتهموها بأنها ما تأبّتْ على الفاكه إلا لحبها لمسافر ، فقبعت تضطرم عناداً على نفسها والنفس إذا عاند بعضها بعضاً عرّضت صاحبها لشىء من الصّلف كثير.

ويستقر الفاكه مع الظهيرة فى بيت أعد للضيافة وتستقر إلى جانبه هند ، خلوة أملاها انقطاع الضيوف مع هذا الوقت الذى حميت فيه الشمس والتهبت الرمال فما من عابر وما من طارئ أو طارق . ويُحسان النوم فينامان غير أن الفاكه ما نام حتى أفزعه شأن من شئونه فهب ليقضيه . خرج عن الخيمة تاركاً هنداً فيها مضطجعة حيث هى .

وغاب الفاكه غيبة قصيرة ثم عاد ، عاد ليلقى رجلا على باب الخيمة ويقع بصر الفاكه عليه ويقع بصر الرجل على الفاكه فيفزع ويولى الأدبار لا يلوى على شىء .

ويقف الفاكه مكانه وقد ثبتت قدماه على الأرض لا تنخلعان منها ، ينظر إلى هذا الرجل المولى شيئاً وينظر إلى الخيمة حيث هند نائمة شيئاً . تحمل إلى رأسه هذه النظرة ظنًّا ، وتحمل إلى رأسه تلك النظرة ظنًّا . فإذا الظنون ينضم بعضها إلى بعض ، وإذا هى آخر الأمر ظن واحد مُريب .

عندها حميت نفسه وعندها ملك أن يخلع قدميه من الأرض وعندها ملك أن يطوى الأرض طيًّا منحدراً إلى حيث هند .

كان للفاكه أن يظن ولكن لم يكن له أن يسىء الظن قبل أن يتدبر ، ولكنه كان قلقاً كما قد عَلِمتَ . وهكذا مهّد هذا القلق لسوء الظن ، وما كان للفاكه أن يفضى بغيره .

والفاكه عزيز فى قومه وعلى قدر عزته كان غضبه ، والفاكه أبِىّ لا يسكت على ضيم وعلى قدر إبائه كانت ثورته . وبعد هذه وتلك ما نظن الفاكه كان بعيداً عن حديث مسافر من قبل . ولقد دخل على هند زوجاً يعرف هذا الحديث على صورة لا تضير هنداً ، غير أنه بعد أن دخل على هند ورأى فيها قلقها كاد أن يعرفه على صورة أخرى ، ثم هو بعد أن رأى هذا الخارج من خيمة هند عرفه على صورة أقسى وأمر .

كان هذا كله يلح على فكره وهو يسرع الخطا ليفجأ هنداً ، وكان هذا كله يشعله غضباً وهو يسرع الخطا ليدهم هنداً .

لقد كان ما بينه وبين خيمة هند خطوات حسب السارى المجدّ معها وثبات معدودات ، ولقد جد الفاكه فيما ظن ووثب فيما خال ولكنه كان حيث هو والخيمة حيث هى وبينه وبينها تلك الخطوات .

لقد عدا الفاكه ما فى ذلك شك ولكنه كان يدور حول نفسه ، ولقد هرول ما فى ذلك شك ولكنه كان بين أن يهرول فى أثر الرجل أو يهرول إلى حيث يجرى إلى هند شوطاً وإلى هناك شوطا .

ويضطرب على الفاكه عقله وتضطرب عليه نفسه وينخزل لاضطراب عقله

واضطراب جسمه فإذا هو مسترخى الأوصال يدبّ على الأرض دبيب الشيوخ ينقل قدميه فى عسر ويستوى على الأرض فى عسر ويبلغ الخيمة فى عسر.

ولقد أفلت منه الرجل ولم يبق بين يديه غير هند.

* * *

٥

لقد لانت الأرض تحت جنب هند فاسترخت ، وندى الجو من حولها فهجعت . وسكنت الضوضاء من حولها فاستغرقت فى نوم عميق ، وإذا الذى فى نفسها تضبطه وهى يقظة لا تستطيع أن تضبطه نائمة . وإذا ماضيها المدفون فى قلبها يجد سبيله إلى أن ينبعث ويجد سبيله إلى أن يستحيل حلماً استسلمت له هند الاستسلام كله حتى لقد كادت قسمات وجهها تشارك فيه .

ويدب إليها الفاكه دبيباً ثقيلا على الأرض فيقطع عليها نومها ويقطع عليها مع نومها حلمها فتهب مذعورة ولسانها ينطق باسم هذا الحبيب الغائب مسافر .

لقد كان آخر ما انتهت إليه فى حلمها قدوم مسافر عليها ، وكان أول ما استيقظت عليه قدوم الفاكه إليها ، فخلطت خيالاً بحقيقة ونطقت بما أملاه عليها منامها لتلقى به رجلها فى يقظتها فإذا هى خجلة فتستخزى وإذا زوجها موغر الصدر قد انصم إلى غصبه غصب .

وتفيق هند شيئاً فتخال غضب الزوج لهذا الذى بدر منها عفواً فتنزل عن كبريائها شيئاً تسترضيه ، وإذا هو قد جمع عليها غير هذه شيئاً لا تعرفه ينال من أعز ما تملك .

وما يكاد الرجل ينطق حتى تستحيل هند الضارعة إلى هند الثائرة ،

وما يكاد الرجل يفصح حتى تميد الأرض من تحت قدمى هند وإذا هى مغشى عليها .

أترى الرجل لانت فيه قسوته حين رأى ما أصاب هنداً فثاب يتدبر ، ثم أتراه وجدها حين ملكت أن تثور كانت تملك الحق فى جانبها ، وحين لم تملك أن تستمسك ، ووقعت مغشيًّا عليها كانت تملك هذا الحق أيضاً فى جانبها .

لقد كان إيمان الفاكه بالمرأة إيمان غيره من الرجال بالنساء يعرفونهن ثائرات ولا حق معهن ، ويعرفونهن معولات ولا حق معهن ويعرفونهن على مثل ما أصاب هنداً ولا حق معهن .

من أجل ذلك لم يلن الفاكه لهند ولم يشفق على هند ولم ينظر إلى ما وقع لهند ورآه نكراً ينضم إلى نكرها وسرّحها إلى بيت أبيها .

وما كانت هند تحب هذا لنفسها وهى الأبية العزيزة الكريمة . ولقد قال الناس عنها قديماً فى شأنها مع مسافر ثم سكتوا وسوف يقولون عنها اليوم فى شأنها مع الفاكه ثم لا يسكتون .

ولقد كان لها مع الأولى عذر تقوله وتقنع به نفسها وتقنع به الناس معها ، ولكنها ليست لها مع الثانية عذر تقوله وتقنع به نفسها وتقنع به الناس معها . وكانت الأولى حبًّا يقع فيه الناس جميعًا ولا منجى لهم منه ، وكانت الثانية فُحشاً لا يقع فيه الناس جميعاً وما أبرأهم منه . ولقد رضيت الأولى هند لأنها شاركت فيها ، وأنّى لها أن ترضى عن الثانية وهى لم تشارك فيها .

وكما خطا الفاكه من قبل ذلك بقليل إلى خيمة هند بعد ما رأى ما رأى خطت هند إلى بيت أبيها بعد أن خرجت من بيت الفاكه . تدور حول نفسها وهى تظن أنها تسير قُدُماً ، وهى كلما أسرعت تعثّرت وكلما نهضت وقعت تحس

الناس من حولها ما بين صائح بها ومزرٍ عليها ولا ناس من حولها . وتسمع إلى الفاكه من ورائها وهو يشيّعها بأقبح السباب وأقذر اللعنات ولافاكه من ورائها يقول شيئاً وتخال أهلها من أمامها قد نذروا بما أتت فبعثوا لها يتوعدونها ولا أهل من أمامها يقفون لها فما كان قد سبق إليهم شيء من حديثها .

ولكنها على هذا تحاملت وسعت سعى الفاكه من قبل فى خطى تنقل قدميها فى عسر وتستوى على الأرض فى عسر وتبلغ بها دار أبيها فى عسر .

ويلقاها أبوها متجهماً ويلقاها أهلها متجهمين ثم يجلسون إليها يستمعون .

* * *

٦

لقد كان الفاكه مضيافاً كما علمت ، وكان القادمون عليه لا يتلبثون حتى يأذن لهم ، بل لقد عوّد هؤلاء جميعاً أن يدخلوا بيته الذى أعدّه للضيافة غير مستأذنين ، يَطْعمون ما شاءوا ويتزودون ما شاءوا ، فإذا ما اكتفوا خرجوا .

هكذا عوّد الفاكه ضيوفه وهكذا تعود الضيوف عن الفاكه لا يجدون حرجاً فى أن يُلموا ببيت الفاكه غاب أم حضر ، ولا يجد الفاكه حرجاً فى أن يجدهم فى بيته غاب أم حضر .

وحين اتخذ الفاكه من بيت ضيافته مكانه مع هند ذلك اليوم كان يخال أن القيظ قد قطع على السابلة الطريق فجلس آمناً لا يرى أن طارقاً سوف يقتحم عليه خيمته فى مثل هذه الساعة ، وحين أمن ذلك أتاح لهند أن تكون إلى جواره ، وحين بلغ به الأمن مبلغه أباح لنفسه ولهند معه أن يضطجعا ليناما .

وينام الفاكه وتنام هند ويهب الفاكه لشأن من شئونه الملحة تاركاً هنداً مكانها ثم يعود ليرى ما كان .

إن هذا القيظ الذى ألجأ حشرات الأرض إلى جحورها وأشعل الرمال ناراً فلم تعد تقوى على مسّها قدم لم يَرُدّ رجلا من الرجال عن أن يمضى ، وكان قد لفّه القيظ واحتواه الطريق ولم يجد مُسْتَكَنا ورأى العودة من حيث أتى أشق عليه

من أن يقصد قصد الفاكه ، كلاهما عليه ضُر ولكن هذا ضُر قصير وذاك ضُر طويل ، وهذا ضُر سوف يعقبه زاد وراحة وذاك ضُر لا أمل معه فى زاد أو راحة فآثر هذا على ذاك ومضى يخبط على الرمضاء لايكاد يضع قدمه حتى يرفعها إليه فأسرع يهرول لينجو بنفسه حتى إذا ما بلغ بيت الفاكه اقتحمه لا يلوى على شىء تدفعه نار من تحت قدميه ونار من فوق رأسه ويدفعه ظمأ كاد أن يحرق فمه .

ويدخل هذا الرجل الذى قست عليه الصحراء ، إلى هذا البيت الذى ألف أن يدخله من قبل دون أن يأذن له آذن ، يرفع الستر لا ينظر إلى شىء غيره ويعبر الممشى لا ينظر إلا لموقع قدميه على تلك الأرض الندية الرطبة ليطمئن أن لم يصبهما شىء ، ويمضى قُدماً إلى حيث اعتاد أن يجد الزاد فيجد غير ما أراد .

وكان به ظمأ ملح كما كان به إعياء غالب ، ولكنه إلى جانب هذا الظمأ وذلك الإعياء كان به إباء وكانت به عفة وكان ضيفاً يرعى لمضيفه حقه ، فانكفأ راجعاً على عجل لا يلوى على شىء ، قد نسى ظمأه ونسى إعياءه وخرج يلقى بنفسه فى ذلك الأتون المحرق مرة ثانية مطمئناً غير كاره .

ويترك الباب الذى دخل ويرفع الستر بيدين غير اللتين رفعه بهما وهو داخل فلقد رفعه وهو داخل بيدين مطمئنتين ورفعه وهو خارج بيدين مضطربتين .

ويقف إلى خارج البيت يتطلع إلى الصحراء ليختار بين معارجها معرجاً يمضى فيه . وفيما هو ينظر يمنة ويسرة يقع طَرْفُه على الفاكه قادماً . وما كان هذا المضياف الكريم ليجهله ضيوفه . فيضطرب الرجل فى مكانه ويعجله هذا الاضطراب عن أن يتريث يختار لأمره فيقذف بنفسه فى الصحراء تحتويه رمالها لا يدرى أية سبيل سلك ، وهو كلما أمعن هرباً التفت إلى ما وراءه فعل الخائف

من الفاكه يخال أنه فى أثره ، حتى إذا ما اطمأن إلى أن الفاكه مكانه لم يتحرك عنه مضى لا ينظر إلى ما وراءه جادًّا فإذا هو خيال على الرمال ثم إذا هو قد وارته الرمال وعادت صفحة ملساء لا أثر عليها لإنسان .

* * *

٧

هذا حديث ما عرفت هند طرفيه ولا ما بين طرفيه ، وما عرف الفاكه منه غير طرفه الأخير. وما استمع أهلها إليها حين استمعوا لشيء من هذا ، ولكنهم استمعوا إليها تقص عليهم حياتها مع الفاكه : قلقه بها وقلقها به ، وكانت هند على أن تمسك فلا تقول شيئاً بعد هذا ولكنها فطنت إلى أنه ثمة شيء قد يثيره الفاكه قبل أن تثيره هى فتلزمها حجة ، فقصت عليهم تلك الرؤيا التى رأت فيها مسافراً . وما يملك الإنسان ألا يرى وما عليه فى أن يرى .

وسكتت عند هذا لا تحب أن تقول غير ما كان منها وتكاد تعاب عليه . وأطبقت شفتيها على لسان قلق ظل يغالبها فتغلبه وكتمت فى صدرها لوعة حرّى . أخذ صدرها يعلو بها ويهبط وترقرقت فى عينها دمعتان حائرتان لم تستطع ردهما حين جريتا على خديها .

عندها علم أهلها أن ثمة بقية لهذا الحديث وأن تلك البقية شائكة شائنة تخزى لها هند ، فهى لذلك مضطربة الفم والصدر والعينين فطأطئوا الرءوس وسكتوا لا يقولون شيئاً .

وتحس هند أنها آذت نفسها ثم آذت أهلها ، وما كتمت عنهم غير جانب يؤذى الفاكه ولا يؤذيها فهو فيه مُفْتَرٍ وهى فيه بريئة . وعزت عليها نفسها

وعز عليها أهلها فانطلقت تروى لهم تلك الفرية التى اختلقها الفاكه عليها وأنه لقى رجلا خارجاً من عندها .

يعلم الوالد ويعلم الأهل من هى هند فلم يصدقوا ، ولكنها شائنة على كل حال سوف ينشرها الحقود وسوف يمسكها الصاحب بين مصدق ومكذب وسوف لا تجد الأسرة من حولها غير شامت أو مرتاب وما أحرجه من موقف .

دار هذا برأس الأب كما دار برأس الأهل وما أظنه إلا دار برأس هند فإذا هم يتفرقون دون أن يقولوا شيئاً ، يقوم الأب ثم يقوم الأهل وترى هند نفسها وحيدة حيث هى فتقوم متثاقلة إلى مضجعها . وما أظنها نامت قليلاً أوكثيراً وما أظن الأب والأهل أخذوا حظهم من نوم قليل أوكثير هم الآخرون .

ولكن شيئاً واحداً فعلته هند ليلتها تلك ولم يفعله الآخرون . هو أنها استرسلت تبكى واسترسلت تتأوّه . فعلت ذلك أولا بصوت خفى غير مسموع ، ثم غلبتها نفسها فإذا هى لها صوت مسموع حين بكت وحين تأوّهت . وإذا هذا الصوت يحفز إليها الوالد ويحفز إليها الأهل يجلسون إليها يواسونها ويواسون أنفسهم إلى أن يحكم الله بينهم وبين الفاكه ، فما علموا على ابنتهم من سوء وإنهم ليقدرون فيها نبلها وليقدرون لها شرفها .

وتَشْجُع هند شيئاً ، فما آذاها إلا أنها حين تفرق عنها أهلها خالتهم يضيقون بأمرها ، ولو أنها علمت هذا لها فى نفوسهم من قبل لاطمأنت . فلقد كانت صلدة عنيدة يعنيها ما تفعل أكثر ما يعنيها ما يقال عنها ، وكانت تحب أن تملى هى صفحتها لا أن يمليها عليها غيرها وتكتبها بيمينها لا بيمين سواها .

وما أطال الأهل مع هند ولا أكثروا عليها ولكنها كانت كلمات قليلة أفصحوا

بها عما لها ثم عادوا إلى مضاجعهم لينامواهذه المرة بعد أن زادتهم جلستهم هذه الأخيرة مع هند ثقة بها واطمئناناً عليها .

وهكذا تُهال النفوس لأول وهلة فإذا ما استقرت شيئاً وتدبرت عاد إليها اطمئنانها .

* * *

٨

ويصبح الفاكه ، ولكنك لم تعرف كيف قضى ليلته هو الآخر . لقد بات مهموماً يفكر وكان صاحب حق فيما يظن وكان مَجْنياً عليه فيما يرى ، على حين رأى هنداً جانية ورآها تفقد هذا الحق الذى يملكه . وإذا ملكت هند أن تدفع عن نفسها فهو لا يملك إلا أن يثأر .

وهكذا اشتعلت فكرة الثأر فى رأسه يصورها كما شاء له خياله وكما شاءت له ظنونه . ولكن هذا الخيال وتلك الظنون تشعبت عليه وأخذ يربط شيئاً بشىء أخذ يربط قلق هند بين يديه بماضيها مع مسافر فاستقام له طرف من القصة ، وأخذ يربط بين هذا الطرف وجهر هند باسم مسافر حين هست فزعة ، فاستقام له الوسط من القصة ، ثم أخذ يربط بين هذا الوسط ودخول هذا الرجل ، فاستقام له الطرف الأخير من القصة .

وإذا هذه القصة تتكامل فى خياله وفى ظنه ، وإذا هو يرى أن هنداً لم تَسْلُ عن مسافر وأنها به موصولة وأن هذا الرجل كان رسول مسافر إليها ورسولها إلى مسافر .

وما انتهى إلى هذا من تخيّله وظنه حتى ارتاح شيئاً ، فلقد كان فيما ذهب إليه أولا فحشاً من الفحش يؤذيه أذًى كبيراً ، ولكن الذى ارتآه أخيراً نُكْر من النكر يؤذيه شيئاً قليلاً ، فمسافر بعيد وهند عنه بعيدة ، وقد لا تكون الرسالات بينهما

غير كلمات ، قد لا تخلو من إباء لهند ، ولقد علم عنها أنها هجرته وأنها نسيته من أجل ذلك بنى بها .

وها هو ذا الرجل يكاد يبرئ هنداً بعد ما اتهمها ويكاد يسقط عنها التبعة بعد ما حمّلها إياها . ولكنه على هذا لم يبرئ مسافراً ولا أسقط عنه التبعة .

وإذا الفاكه ينسى هنداً ويذكر مسافراً وإذا الثأر من مسافر واجب عليه لا مَعْدِلَ له عنه ، على الثأر بات الفاكه يدبّر له ويعد عُدّته ، ولقد هم أن يخرج راحلا مع الليل ولكن عليه أن يتلبث إلى أن يطالعه الصبح ليلقى نفراً من المتصلين بمسافر يسائلهم عن مكانه . فلقد كان كل علمه عنه أنه رحل ولكنه لم يكن يدرى إلى أين رحل .

ويلقى الفاكه مع الصباح هؤلاء النفر فلا يجد عندهم علماً عن مسافر ، ولعلهم رأوا الشر فى عين الفاكه فخافوه على مسافر فأنكروا ما يعرفون .

وضاقت نفس الفاكه بما انفرجت له ، ودخل عليه هَمّ جديد أشد من همّه الأول ، فلقد بات وجود مسافر يقلقه وبات يزيد فى قلقه عجزه عن أن ينال منه .

ويجلس الفاكه إلى نفسه يفكر فيرى أن خبر مسافر عند هند ، ألم ترسل إليه ويرسل إليها . وبالأمس القريب خرج الرسول برسالتها إليه .

وكما فكر الفاكه فى هذا فكر فيما بعده ، فكر فى أن هنداً لن تُلقى بالا لهذا وأنها ستنكر عليه ما انتهى إليه .

إذًا فما باله لا يلقى أبا هند ويكاشفه بالذى عزم عليه ، ويكاشفه بأنه سوف يحفظ بما سيفعل لهما معاً شرفهما . وبهذا يكل الفاكه إلى عتبة استخلاص السر من ابنته ، وإن عتبة على ذلك لقوى .

وما إن انتهى الفاكه إلى هذا من أمره حتى حمل قوسه وسهمه ومر بين الناس يخطو إلى بيت عتبة .

ويتطلع إليه الناس فيوجسون شرًّا ، ويرونه يقصد إلى عتبة فيتأكد لهم هذا الشر ، فيقومون فى وجهه يمنعونه ، يدفعهم عن نفسه الفاكه ويدفعونه هم عن قصده ، ويغلظ لهم ويغلظون له ، ويثور بينهم كلام كان فى جملته تصويراً لهذا الحديث الذى ظنه الفاكه بينه وبين هند إلا أن تكون هند حدّثت به أهلها . فإذا الناس على علم به كله وإذا هو حديث الحى لا حديث الفاكه وهند وأهل هند .

* * *

٩

لم يخرج الفاكه للنيل من مسافر لأن القضية استحالت شيئاً غير ماصوّره الفاكه لقد استحالت خصومة بين الفاكه وبين هند وأهلها . وكان الفاكه قد أراد أن يجعلها خصومة بينه وإياهم وبين مسافر .

وحين رأى الفاكه ما رأى وسمع ما سمع عاد يرى الأمر على صورته الأولى التى قرف بها هنداً وعاد من جديد يقول ويزيد .

وقد ملك الفاكه حجة وهند تنكر عليه تلك الحجة ، والفاكه يفقد شاهداً وهند تفقد هذا الشاهد ووراء الأمر غيب . والقوم فى جاهلية ويعلم غيبهم الكهان وبه يطالعونهم .

وما قضية هند بقضية تغمض عليها العين ، فهى بنت عتبة ، وعتبة رجل شريف فى قومه نبيل بين أهله ، وإن مضى بهذه وسكت عنها دون أن يقول الكهان فيها كلمتهم مضى بسبة الدهر وعار الأبد .

على هذا أجمع عتبة وأجمع الفاكه وأجمع معهما الأهل والعشيرة ولكن هنداً لم تجمع على شىء . ولقد رأت شرفها يَعْنيها هى أولا من دون هؤلاء جميعاً ورأت منقصة أن يحكم على شرفها ولا يستمع لقولها فيه ، ورأت الكاهن بشراً قد يخطئ وقد يصيب ، وياوَيْلَها من نفسها إن أخطأ ، ثم ياويلها من أبيها وياويلها من أهلها وياويلها من عشيرتها .

وما على الفاكه من حرج إن أخطأ الكاهن أو أصاب فما كان بصائره أن يُجمع ، وما على أهلها من بأس كبير إن أخطأ الكاهن أو أصاب فسوف يجدون لهم مخرجاً قد يكون فيه هلاكها ، فما كان بصائرهم هم الآخرون أن يُجمعوا .

ولكنها رأت الحرج عليها وحدها إن أخطأ الكاهن فسوف يصيبها فى أعز ما تملك فكان ضائرها أن تُجمع .

وأنس القوم بما انتهوا إليه أنس الفاكه به وأنس به أهل هند ولكن هنداً لم تأنس به وضاقت بها الدنيا على سعتها وإذا هى تحس الضعة فيما رأت فى تلك البيئة الغاشمة فتزداد صلفاً إلى صلف وعناداً إلى عناد .

وفى ثورة هذا الصلف وذاك العناد تدخل هند على أبيها عتبة تحدثه ويستمع إليها أبوها عتبة وقد أدرك ما تريد ، وكأنى بعتبة قد بدأ يساوره الشك فى حديث ابنته حين رأى منها ترددها وحين رأى منها جزعها وحين رآها لا تؤمن بالكهانة والكهان وهو الذى يؤمن بذلك كله . وما بعتبة من إيمان بالكهان وما بهند كفر بهم ، ولكن عتبة غير هند فى هذا الحديث ، عتبة يعنيه أن يفصل فيه ويكون الحق فى جانبه ، وهند يعنيها أن تستوثق من هذا الحق قبل أن يفصل فيه ، فعتبة مقامر يضمن شيئاً وهند مقامرة قد لا تضمن شيئاً .

فى ظل هذا الإحساس إحساس الأب وإحساس البنت جرى الحديث ، تقول هند لأبيها :

أليس لنا معشر النساء أن نتكلم ؟

ويقول لها عتبة : إذا قضى الرجال فى أمر كان على النساء طاعته وتقول له هند : وإن كان لهن رأى فيه ؟ .

ويقول لها عتبة : وقد بدأ الغضب يملكه : ما جرّبنا عليهن من رأى .

وتقول هند وقد آذتها كلمة أبيها شيئاً إلا أنها ملكت نفسها : رب رأى يعجبك من مستضعف . ! ؟

ويرق عتبة لكلمة هند ويحس أنه قد آذاها بكلمته ويود لو خفف عنها فيقول لها : ٠وهل تَتَّهمين أباك فى رأيه يا هند ؟

وتود هند لو أفادت من لين أبيها فتقول له : أو من يشاركك الرأى يتهمك فيه يا أبى ؟

ويدرك عتبة أن هنداً تريد أن تحوّله عن رأيه فيعود شبه غاضب وهو يقول لها : رأيت من قبل ورأينا لك وأنك لتذكرين الآن ماجر علينا ما رأيت ! .

عندها تتزاحم الذكريات فى رأس هند ، وعندها تذكر هند أن أباها يعرّض بحديث مسافر ، وعندها يعاود الصلف هنداً فإذا هى تقول فى عزة واستمساك : أو ليس للمرأة أن ترضى وتكره ، أو ليست لها العيون التى رزقكم الله إياها ، أتفرقة أبى بين قلوبكم وقلوبهن ، ولكنهن على هذا يلزمن أنفسهن بما لا تلزمون به أنتم أنفسكم ، فلا يتطلعن إلى كل ما إليه تتطلعون ولا تتفتح قلوبهن إلا للقليل مما تتفتح له قلوبكم ، وإنهن على هذا لمحسودات .

وما عهد عتبة ابنته هنداً على هذا النحو إذا تحدثت ، ورآها ثائرة النفس فترك لها الحديث تمضى فيه ، ورأت هند أباها ينظر إليها كمن يطلب ما عندها فتشجعت تقول :

لقد أحبّنى مسافر وما للمرأة ذنب فى أن يحبها إنسان ، وما لها ذنب فى أن يصوّر هذا الحب كيف شاء ما دام يملك لساناً عفًّا ومنطقاً غير ذى فحش .

ويرى عتبة أنه معنىٌّ بهذا القول وأن عليه أن يقول : ولكنك أَعَنْتِه على أن يشهِّر بك .

فتقول هند : لقد أحببته كما أحبّنى ، أحببته كحب الحرة للحر يعرف ما عندى وأعرف ما عنده . وما كان مسافر بالذى يُعاب خُلقاً وخَلقاً ولا بالذى يُتَنَقّص أسرة ونسباً . ولكنكم أبيتم علىّ أن أكون له زوجة وأبيتم عليه أن يكون لى زوجاً .

ويقول عتبة فى هدوء : تلك سنة البيئة التى ضمتك يا بنية ، وهل ترين مثلى أو مثلك يقوى على أن يخرج على ما سنّته البيئة . إنه الخزى الدائم والعار اللاحق ، أو ترضين لأبيك أن يعيش سبة ، ثم أترضين لأهلك أن يعيشوا مضغة ثم أترضين لنفسك أن تكونى حديث القوم يتندرون به ويتسامرون ؟

ما كان مسافر مطعوناً بشىء يعيبه ولكنه سلك إليك يا بنية السبيل التى لا تليق بحرة .

وهنا تثور هند : وهل على الحرة عار فى أن تُحِب وأن تُحَب .

ويقول عتبة هادئاً : إنك تتكلمين على الحب بلغتك لا بلغة الناس من حولك ، فالناس يعرفونه مجوناً ولهواً وأنت تعرفينه جدًّا .

وتقول هند : وما يضيرنى من الناس ؟ .

ويقول عتبة : يضيرك يا بنية أن شرفك وإن كان إليك تصنعينه فهو إليهم يصوّرنه ، وإن صنعت غير ما يعرفونه صوروه هم كما يشاءون فإذا أنت الخاسر وهم الكاسبون .

وترتد هند شيئاً وهى تقول : لقد كنت أقدر على أن تعالج الأمر يا أبتاه .

ويقول عتبة : لقد عالجته بما يجب علىّ وعليك ، وبما يضمن لى ولك الخير فى العشيرة ، وما كنت يا بنية بمستطيع إلا أن أرد مسافراً بعدما شهّر باسمك . ثم

مالك يا بنية تذكرين شيئاً لا أرى الدهر إلا قد عفَّى عليه فى قلبك وما أظنه إلا عفَّى عليه فى قلب مسافر .

وتسكت هند لا تقوى على الكلام فيقرب منها أبوها يلاينها وكأنه يريد أن يستخلص منها شيئاً : ولكن حدثينى يا هند ما هذا الذى أثاره الفاكه .

وتقول هند : لقد حدثتك به .

ويقول عتبة : أجل ولكنه حديث جاء على وجه وجاء حديث الفاكه على وجه آخر .

وترفع هند إلى عتبة عينيها مستنكرة وكأنها تريد أن تقول شيئاً ، فإذا عتبة يعاجلها : ألم يكن هذا الرجل رسول مسافر إليك ؟ .

وتقول هند متعجبة : أى رجل ؟

ويقول عتبة : هذا الرجل الذى رآه الفاكه على بابك .

وتقول هند : أشكًّا فى هند بعد العشرين ؟

ويقول عتبة : ما شككت فى أمرك مذ درجت

وتقول هند : ولكنى أراك لا تصدقنى .

ويقول عتبة : وماذا يجدى تصديقى يا بنية إن لم تصدّقك العشيرة من حولنا .

وتقول هند : وماذا أنا فاعلة ؟

ويقول عتبة : أرأيت يا بنية أن أباك كان مع الحق حين أجاب الفاكه لنخرج إلى الكاهن يحكم بيننا وبينه ولو أنى أبيتُ عليه ما طلب لعُدْتُ بوصمة عار لا تمحى .

وتقول هند : وهب كاهنكم قد أخطأ .

ويقول عتبة : دعى أباك يدبر لأمره فأنت قطعة منه وشرفه موصول بشرفك .

* * *

١٠

مع الغسق والشمس تداعب الأفق من وراء حجاب والناس نيام إلا من أعجلته حاجة أو عزم على تجارة ، كنت تسمع حول بيت هند جلبة يختلط فيها هدير الإبل بصوت النساء . ولكنك كنت تحسها جلبة حزينة ، تهدر الإبل حزينة ويصيح الناس حزينون ، ويرتفع عنهم هذا كله فى الجو فيُلبسه لباساً حزيناً وتسمع وترى فإذا أنت حزين بهذا الحزن كله .

فى صبيحة هذا اليوم اعتزم عتبة واعتزم معه الفاكه أن يرحلا إلى الكاهن تَصْحَبُهما جموع من أهل عتبة وجموع من أهل الفاكه ، وبين هؤلاء وهؤلاء رجال ونساء .

وبكر القوم يحزمون أمتعتهم ويعدون عدتهم لسفر طويل بينهم وبين غايتهم أيام وليال ، لذلك كان المتاع كثيراً وكان الإعداد كبيراً وكانت الأصوات تنبئ عن هذا كله وتصور هذا كله .

ووقف عتبة يباعد الفاكه والفاكه يباعده ، يصيح هذا بمن معه ويصيح ذاك بمن معه .

تنظر إلى عتبة فترى رجلا غير الرجل كئيباً مهموماً قد حنت تلك الأيام القلائل ظهره وبحت صوته وأعلّت صحته ، وتنظر إلى الفاكه فتراه رجلا غير

الرجل كئيباً مهموماً قد أذبلت تلك الأيام القلائل عوده وذهبت بنضرة وجهه وأبْلَت قوته .

وتنظر إلى رجال عتبة من آله فتراهم قد شاركوا عتبة فى الكثير مما أصابه ، وتنظر إلى رجال الفاكه وآله فتراهم قد شاركوا الفاكه فى الكثير مما نابه . قوم جمعهم الهم بثوبه لم ينج منهم واحد قد استوت منازلهم فى ذلك الهم وإن اختلفت من قبل ، وقد قربوا من نهاية المرحلة وقد كانوا من قبل على بعد منها .

ومن وراء هؤلاء جميعاً تجمعت النساءُ تُباعد نساء هند نساء الفاكه وتُباعد نساء الفاكه نساء هند لا تكلم واحدة من هنا واحدة من هناك ، وكلهن كئيبات مهمومات فكلهن أهل وكلهن تضمهن عشيرة وما اتهام واحدة إلا اتهام لهن جميعاً .

ويطوى الركب الصحراء طيًّا يمر على رمالها مرًّا ليس فيه جلبة المسافرين ولا حديث المتسامرين وكأنها إبل ليس من فوق ظهورها أناس أوكأنه أناس ليس من تحتهم إبل . صمت الرجال وصمتت الإبل لم تعد تسمع إلا أزيز الرجال ومس أكف الإبل للرمال .

ويبدو من الأفق البعيد شرف يعلوه بيت أو بيتان عندها تشرئب الأعناق إليه وبَجِم القوم لمرآه وتنحبس أنفاسهم وتجْمد أوصالهم ، وتستدير الرءوس للرءوس وتغمز الأعين للأعين .

رأى هذا الشرف الرجال فكان منهم ماكان ، ولم تره النساء فهن فى هوادجهن مسدلة عليهن وما كان لهن علم بالصحراء بأشرافها وأغوارها فظللن بمنأى عما فيه القوم ، وإذا هن يسمعن صوتاً يقطع هذا السكون يقول : لقد أشرفنا على الكاهن .

وكأن هذا الصوت ما انطلق إلا لهند ، فإذا هى فزعة ، وإذا هى مولولة ، وإذا هى بين إغماءة وصحوة .

عندها يرتد الركب صاخباً يتصايح الناس وتتصايح النساء وتتصايح الإبل ويدوى هذا كله فى الصحراء فيثير خليطاً من الضجيج لا تتبين فيه شيئاً .

وسرعان ما تعود الحركة إلى سكون ويعود الضجيج إلى هدوء ويعود الناس إلى رحالهم ، ولكنهم يقفون ولا يتحركون ليروا عتبة قد بسط لابنته كساء على الأرض وقد جلس إليها بعد ما أفاقت شيئاً يُسارّها وتسارّه . وما أظنهم غاب عنهم شىء من حديث عتبة وهند وإن كانوا لم يسمعوا منه شيئاً فهم قد لقنوا أن الأب فزع لفزع ابنته فهو يستوثق . ولما رأوا عتبة قد عاد إلى رحله وهند قد عادت إلى هودجها لقنوا أن فزع هند لم يكن كما قدروا . ومضى الركب ليبلغ غايته .

* * *

١١

لقد وعد عتبة ابنته ألا يُلقى بها بين يدى كاهن لا علم له يفسد عليها ما بقى من عمرها . لقد كان عتبة حريصاً على هذا لتلك ، كما كان حريصاً عليها لشىء آخر فى نفسه فما يحب عتبة أن يعرف الناس إن نجت هند أنه قصد كاهناً لا علم عنده فتكون عليه أشد من اتهام ابنته .

لهذه وتلك حرص عتبة أن يختبر ما عند الكاهن من علم فإن رآه لها أفضى إليه بأمره وإن رآه ليس لها عدل عنه إلى غيره وحجته معه .

على هذا صمم عتبة ولهذا أخذ يدبر غامضة من الغوامض يلقى بها الكاهن يختبره بها وما نظن عتبة فكر فى واحدة واجتزأ بها ، بل ما نظنه إلا عدل عن واحدة إلى واحدة حتى انتهى إلى ما رآه ملغزاً . وما نظن عتبة أفضى بما فى نفسه لواحد ممن حوله ، بل نظنه كتم ذلك فى نفسه بعد أن أغلق عليه صدره وحبس عنه لسانه ، وما نظن عتبة إلا شغل بهذا الطريق يفسح له سكوت الناس مهمومين ويرخى له .

ويقصد القوم إلى الكاهن ويقصد إليه عتبة ، فلقد كان الكاهن فى حاجة إليهم جميعاً رجالاً ونساء ليلبسوا عليه وليكون له ذلك امتحاناً ثانياً .

وتكاد ترى القوم وهم مقبلون عليه كأنهم كلهم مذنبون وكأن كل واحد منهم صاحب جناية يدفع بعضهم بعضاً ويتخلف بعضهم عن بعض ، يرعد

هذا وما من سبب لإرعاده ويضطرب ذاك وما من عذر لاضطرابه .

وكان أشدهم هولا فى ذلك النساء فما من واحدة منهن خطت إليه ثابتة الخطا ، وما من واحدة منهن أقبلت عليه دون شد وجذب ، وكانت هند من بينهن جميعاً ثابتة الخطا مرفوعة الرأس قد ملئت إقداماً وشجاعة .

ويراها النساء ويراها الرجال فإذا كلهن وكلهم فى مثل ثبات خطاها وشموخ رأسها وإقدامها وشجاعتها .

وما حدث عتبة الكاهن فى شىء يخص ابنته بل جعل ابنته بين هؤلاء جميعا وما حدث عتبة الكاهن عما جاءه من أجله بل ترك له هذا يقول فيه بما تمليه عليه كهانته . وبعد هذا كله حدث الكاهن بأنه يَخْبَأُ معه شيئاً وطلب إليه أن يخبره به . . وبأن يخبره أين خبَأَه لم يطلب منه ذلك فى إجمال بل طلبه منه فى تفصيل لا يدعو إلى الريبة فى قوله .

وأخذ الكاهن فى شأنه بعد ما أجاب عتبة فيما طلب إجابة اطمأن إليها عتبة واطمأنت هند باطمئنان أبيها عتبة . وإذا هذا الكاهن يقع على هند من بين الجميع ويعلن براءتها على رءوس الجميع يكاد يحدد التهمة ويكاد يحدد زمانها ويكاد يحدد مكانها .

* * *

١٢

لقد كان مسافر بعيداً عن هند بجسمه ولكنه كان قريباً منها بقلبه . وما كذب الفاكه حَدْسُه حين حَدَس أن مسافراً موصول بهند ولكن كَذَبَهُ حَدْسُه حين حدَسَ أن هنداً موصولة بمسافر ، ولقد صدق الفاكه حدسه أن مسافراً منقول إليه أخبار هند ولكن كَذَبَهُ حدسه حين حدس أن هنداً منقول إليها أخبار مسافر ولقد صدق الفاكه حدسه أن هناك رسولا لمسافر ، ولكن كذبه حدسه حين حدس أن هذا الرسول هو ذلك الرجل الذى وقع عليه بصره على باب خيمة هند .

وهكذا لم يغب عن مسافر شيء مما وقع لهند بأَخِرَة من ذلك الحديث الطويل الذى كان بينها وبين الفاكه ، وما غاب عن مسافر شيء مما اعتزم عليه القوم من احتكام لكاهن . وكان مسافر من حى هند والفاكه وهو يعلم إلى أىّ كاهن سوف يحتكمون .

لم يكن هذا الكاهن بالشيخ المسن ولا بالشاب المُعْتَلم ، وإنما كان إنساناً بين هذا وبين ذاك . ورث الكهانة عن آبائه ورثها عن أبيه بعد أن ورثها أبوه عن جده . وذاع اسم هذا البيت بين أحياء العرب يصدق حدسه ويصدق ظنه لم يَعْرِف عليه حىٌّ من أحياء العرب المحيطة أنه ضل أو أساء الحكم وكما كان الجد كان الأب وكما كان الأب كان الابن ، بل لقد كاد هذا الابن يَبُزّ أباه وجده .

ولقد نشأت بين مسافر وبين هذا الابن الكاهن صلة اختلف من أجلها مسافر على هذا الابن كثيراً . لم يعرفه مسافر قبل أن يهجر هنداً وإنما عرفه بعد أن هجر هنداً . عرفه أول ما عرفه يوم خرج منطلقاً من حيه شبه مطرود حين شاع ما شاع عن عشقه لهند يستخبره غيبه ويستخبره غيب هند ويستخبره عن غيبه مع غيب هند . وتبع تلك الزورة زورات وإذا مسافر بعد حين صديق حميم للابن الكاهن يقصد إليه فى اليوم بعد اليوم وكان منه قريباً .

لقد نزل عتبة على الكاهن وما يعرفه ، ونزل الفاكه على هذا الكاهن وما يعرفه وكذلك كانت حال هند ومن كان معها من نسوة ومن كان مع أبيها والفاكه من رجال .

وخرجوا عن الكاهن جميعاً تلهيهم الفرحة عن أن ينظروا فى شىء أو أن يلتفتوا إلى شىء . ولقد ودعوا الكاهن جميعاً ودعه الرجال مصافحين وودعه النساء مارات بين يديه ، وما لفت هؤلاء شىء كما لم يلفت هؤلاءشىء ولكن واحدة بين النساء جميعاً لفتها شىء خرجت به ولم تدرك معناه ورحلت به ولم تدرك معناه فلما استقرت فى بيتها أدركت معناه .

لقد أطال هذا الكاهن الوقوف إلى هند فلم تدهش وخالت حرفته تملى عليه ، ولقد نظر هذا الكاهن إلى هند فحملق وأطال فلم تدهش تخال حرفته تملى عليه وقد ربت على كتفها طويلا فلم تدهش تخال حرفته تملى عليه ، فلما استنهضها لتقوم بريئة شد على يدها شدة كادت تصرخ لها إلا أن نشوة الفرح عوضتها عن شدة الألم فاختلط عليها الأمر فلم تدر أبكت فرحاً أم ألماً . وحين مرت مع النسوة بين يدى هذا الكاهن لم يشيّع غيرها بنظراته وكانت كلما رفعت إليه بصرها لتتبين وجدته لا يحوّل بصره عنها .

ذكرت هند هذا كله وهى خارجة من عند الكاهن وذكرته فى الطريق غير أنها كانت عن هذا كله بما أصابت مشغولة عنه بالحديث إلى النسوة معها . فلما أن استقرت ولم تعد فرحتها تشغلها ولا حديث النسوة يشغلها خلت إلى نفسها تفكر فى هذا الكاهن .

لم يختلف هذا الكاهن عن غيره من الكهان الذين تصورتهم هند أو رأتهم ، فهو فى مسوح الكهان ما فى ذلك شك وفى سمتهم ما فى ذلك شك ، له اللحية المرسلة وله الشارب المحفوف وله شعر الرأس الأغبر الأشعث . رأت هذا كله فيه ورأت مثله فى غيره وتصورته . ولكنها رأت فيه عينين ليستا غريبتين عليها وسمعت منه صوتاً فيه جرس ليس غريباً عنها على الرغم من أن صاحبه يخفيه بتمتمته .

لقد استطاع مسافر أن يحل محل الكاهن فى موقفه ذاك ، لا ندرى كيف أتاح لنفسه هذه الفرصة احتالها احتيالا أم رجاها رجاء ولقد أبدع فى موقفه ذاك إبداعاً لم يؤخذ فيه عليه شىء . ولعل طول صحبته للكاهن علمته . ولعل طول صحبته مكنته من أن يفعل ما فعل .

إذا لم تكن هند بعيدة عما شغلها بعيدة عما فكرت فيه لقد كانت من ذلك قريبة ، وازدادت قرباً حينما علمت ذلك بعد حين . علمته وحدها ولم يعلمه غيرها فأخذت تذكر مسافراً بعد ما كادت أن تنساه نسياناً .

* * *

١٣

لقد عاد الفاكه من رحلته تلك الشاقة المضنية يحس الراحة شيئاً والأسف شيئاً . لقد أسف على ما فرط منه فى حب هند ، ولقد ارتاح حين لم يبق فى نفسه شىء يقلقه على هند .

وماكان الفاكه زوجاً فحسب فيخرج كما دخل ، ولكنه كان محبًّا من نوع غير نوع مسافر ، وماكان مسافر بدعاً ولكنه كان محبًّا من طراز المحبين .

فما ضل قلب عن الهوى ، كل القلوب متفتحة له تذوقه ، ومذاق الهوى حلو على كل لسان ما أنكره لسان ولا ندّ عن أن يستسيغه . وإن سميت هؤلاء كلهم محبين ظلمتهم وظلمت الحب ، فالناس كلهم آكلون والذواقون منهم قلة والناس كلهم مجمعون على جمال الزهرة والمرهفون الحس منهم قلة والناس كلهم مستحسنون للسماع والمرهفون آذاناً منهم قلة .

والحب شىء من ذلك كله لا يخرج عنه ، يعرفه الناس جميعاً ويختص بشغفه منهم قلة . ولقد أحب الفاكه هنداً كما يحب الناس ، هز الحب قلبه كما يسيل الجوع لعابه وكما تلفت الزهرة عينه وكما يحرك السماع أذنه ولكنه كما لم يَكُن من المتذوقين للطعام ولا من المرهفين الحس للجمال ولا من المستحسنين للسماع كذلك لم يكن من هؤلاء الذين نسميهم محبين .

فكان ثمة فرق بين مسافر والفاكه هذا أحب هنداً وذاك أحبها . أحبها مسافر

يتمثل فيها معنى وأحبها الفاكه يتمثل فيها جسماً . وغابت هند عن مسافر فلم ينسها لأنه لم يحب جسمها ، وكادت هند تغيب عن الفاكه حيناً فكاد أن ينساها لأنه أحب جسمها ، وكادت أن تضل هند فسعى مسافر لخلاصها لا يعنيه أن يكون جسمها له أو لغيره ، وبدا للفاكه أن هنداً على ريبة فمضى يلصق بها هذه الريبة لأن عشاق المادة يعنيهم أن تكون هذه المادة خالصة لهم من دون الناس .

لقد ارتاح مسافر لأن هنداً اطمأنت وإن بعدت عنه . ولقد ارتاح الفاكه لأن هنداً اطمأنت وستعود إليه .

من أجل ذلك أسف الفاكه على ما كان منه لا لأنه آذى هنداً ، ولكن لأنه آذى نفسه به ، فلقد خاف أن تمتنع هند عليه وهو يحبها هذا الحب الذى بسطته لك .

وهند ذات نفس وذات قلب لها نفس مسافر ولها قلبه . أحبت مسافراً لا تعرف فيه غير أنها تحبه ولقد فرقت الأيام بينهما فأُنسيته وبقيت على حبه ، أنسيته فعل الحرة لا تريد أن تخلط حقًّا بباطل وأحبته فعل الحرة لأن هذا الحب من الوفاء لم تعرف الحب كما عرفته بيئتها عبثاً من العبث وإنما عرفته ودًّا وإخلاصاً وعطفاً ، وإن أنكر الناس على المرأة هذا وأنكروا مثله على الرجل فهى قد عرفته على صورته تلك وعرفه معها مسافر ما عهدت عليه من ريبة وما عهد عليها من ريبة . عهد الناس بالحب بين مثل مسافر ومثل هند ريبة ، من أجل هذا صدّها أبوها ، ومن أجل هذا أنذرها ذووها مع أبيها ، ومن أجل ذلك أشفقت هند على مسافر وطلبت إليه أن يرحل ، ومن أجل ذلك استجاب مسافر لا خوفاً من أن يقتل ولكن حبًّا لهند لأنه أحب أن يرضيها وأحب ألا يعنِّيها

وأحب أن يطمئنها ، وهل كان حب مسافر لهند إلا لهذا ونحوه .

لقد سعى الفاكه سعيه ليرد هنداً إليه وسعى مع الفاكه أهله وسعى مع أهل الفاكه عارفوه وكاد عتبة أن يقبل غير أن هنداً أبت .

وهنا ملكت هند أن يكون لها رأى وملكت أن يغلب رأيها رأى أبيها ، وملكت أن يغلب رأيها رأى من دخل بينها وبين الفاكه .

ماكانت هند حين تأبت على الفاكه تؤثر شيئاً أو ترغب فى شىء ولكنها كانت تؤثر هذا المعنى الطيب الطاهر الذى انغرس فى قلبها مع حب مسافر ثم نما فى قلبها بعد مما كان من مسافر . لهذا الحب الذى قدسته هند ، أبت أن تعود مع الفاكه وماكانت تدرى بعد ما سيجود به القدر .

* * *

١٤

والمهزومون فى حبهم المادى غير المهزومين فى حبهم المعنوى ، فالأولون ثائرون ناقمون والآخرون صابرون عافون . ولقد هُزم مسافر فصبر وعفا وهزم الفاكه فثار ليثأر .

وكما جلس الفاكه يدبر لأمره مخرج هند عنه حين سَرَّحها ، ثم انتهى به تدبيره إلى أن يرحل ليقتل مسافراً ، جلس هذه المرة أيضاً يدبر لأمره بعد أن تأبت هند عليه ، ثم انتهى به تدبيره إلى أن يرحل ليقتل مسافراً .

لقد عد الفاكه فى المرة الأولى مسافراً صاحب هذا الرجل الذى دخل على هند خباءها وهو فى هذه المرة يعد مسافراً هو الذى شغل فكر هند فهى لم تلبث أن وجدت الفرصة حتى أرادت أن تفيد منها فتهجره لتعود إلى مسافر .

وهكذا فهم الفاكه الأمر على صورته هذه التى تخيلها فهو يعرف النساء لا يتأبين على مثله فى جاهه وغناه ومكانته . وهو لا يعرف أن النساء يرددن على مثله مسعاه وإلحاحه فى هذا المسعى ، وهو يعرف النساء لا ينكرن من أن يسترضيهن الرجل بعد أن يغضبهن .

ولقد استرضى الفاكه أبا هند فرضى ، لأنه مثله لا يرى فيما كان غضاضة . وهل هو إلا حق استخدمه الفاكه حين سرح هنداً ثم هو حق يستخدمه حين يسترضى هذا الأب .

ما ظن الفاكه بهند غير أنها مشغولة بمسافر من أجل ذلك تأبت عليه . تظهر أنها له كارهة وهى راغبة فى أن تُبعده لتظفر بغيره .

وظاهر أمر هند كما رآه الفاكه يشينه وباطن أمر هند يؤذيه وكلاهما مُر على نفسه . وهى امرأة وهو رجل وللرجل أن يشترى وللمرأة أن تقبل . ولقد كان يظن أن الأمر بينه وبين أبيها ، فإذا الأمر بينه وبينها . ولقد رأى أنه المهزوم إن لم ينل ما يبغى فلا أقل من أن يفوّت عليها مسافراً بقتله ثم ليكن بينه وبينها بعد قتل مسافر شأن آخر .

إلى هذا انتهى الفاكه وعلى هذا صمم . وكما خرج فى المرة الأولى يحمل سهمه وقوسه ، خرج فى هذه المرة يحمل سهمه وقوسه ، ولكنه لم يعرج على منزل عتبة فيظن الناس به شرًّا لعتبة فيحولوا بينه وبين بغيته . ولكنه خرج مخرجاً آخر إلى قصد آخر لم يعرف الناس عنه شيئاً فتركوه .

وكما كان الفاكه كريماً ممعناً فى الكرم كان ذا بأس ممعناً فى البأس يعرف الناس طرفيه ، ويعرفون أن لا وسط له بين هذين الطرفين ، كان ذا عاطفتين تنام إحداهما حيناً وتستيقظ الأخرى ، لا تنامان معاً ولا تستيقظان معاً . وما كان الناس من حوله يعرفون متى تغفو هذه ومتى تستيقظ تلك . وما أعْدَت إحدى العاطفتين الأخرى فما أَعْدَت سماحته بأسه فأنسى بأسه لسماحته ، ولا أعدى بأسه سماحته فأنسى سماحته لبأسه . وكان الناس يرهبونه ويرغبون فيه ، لم يستقر على رهبته راهب كما لم يستقر على الرغبة فيه راغب .

ولقد عاش مع هند بتلك العاطفتين يسخو فى إكرامها فيمعن فى السخاء ثم يعنف بها فيمعن فى العنف ، من أجل ذلك عاشت هند معه لا تعرفه

ولا تنكره ، ومن أجل ذلك عاشت هند معه قلقة ، ومن أجل ذلك كانت هند معه تذكر مسافراً لا ذكرى مُدَنَّسة ولكن ذكرى طاهرة ، ومن أجل ذلك أحبت ألا تعود إليه بعد ما خرجت عنه .

* * *

١٥

لم يكن عام أو يزيد قليلا كفيلا بأن يغير مسافراً شيئاً أو يغير الفاكه شيئاً فما اختلفت صورة مسافر كما لم تختلف صورة الفاكه ، فما إن التقيا حتى عرف أحدهما الآخر ، لم ينكر هذا من ذاك شيئا ، ولم ينكر ذاك من هذا شيئاً . وما كانا بعيدين أحدهما عن الآخر صبيين ، بل لقد درجا معاً وشبّا معاً ، وجلسا الليالى الطوال يتحدثان ، يستمع الفاكه لمسافر ويستمع مسافر للفاكه إلى أن شعر مسافر وأصبح له شيء يروى وشيء يسمع ، وكان هذا الشيء الذى يروى ويسمع فى هند ، اعتزل الفاكه مسافراً ولم يعد يلقاه .

فلقد شغفا بهند معاً . يخفى الفاكه عن مسافر ويخفى مسافر عن الفاكه ، يظن كل منهما أنه صاحب هذا الأمر وحده ، فإذا مسافر يعلن عن نفسه بشعره وإذا هند تميل إلى مسافر وتصل حبلها بحبله على الوجه الذى مر بك . عندها يتنكر الفاكه لمسافر ويجد عليه ، ولا يعود يجلس إليه حتى إذا ما خرج مسافر عن الحى وهدأت الثائرة شيئاً أخذ الفاكه يسعى إلى الزواج من هند . وقد تم له ما أراد .

فحقد الفاكه على مسافر حقد قديم ، حقد لم يكن يعلمه من قبل مسافر ولم تكن تعلمه هند ثم انكشف شيء منه لهند حين كان ما كان . ولكنها لم ترده إلى أسبابه هذه بل ردته إلى لون من ألوان الغيرة من مسافر ، يغار منه الفاكه ويحقد عليه لأنه يخاله بماضيه الموصول بحاضره قد أفسد عليه زوجه . أما هذه المنافسة

الأولى فما كان لهند بها علم .

وما حقد مسافر على الفاكه إلا لأنه لم يكن يعلم أن ثمة سبباً بينهما يثير الحقد ، وما حقد عليه ثانية حين بنى بهند لأنه لم يكن يعلم أنه فعل ذلك ثأراً لنفسه منه ، بل نظر إلى الأمر نظرة بريئة ، فكاد يشكر له أنه رد إلى أهل هند اطمئنانهم ورد لهند شيئاً من هذا الاطمئنان . فما كان مسافر يحب أن يسيء بحبه هنداً ولا أهل هند ، وإنما كان يريد أن يُسعد به هنداً ليسعد أهلها . ولقد وجد أهلها السعادة لهم فى بعده ووجد شيئاً من هذه السعادة لهند فى أن يبتعد حتى لا يُفسد ما بينها وبين أهلها ، ففعل راضية بذلك نفسه .

على هذا اللون عرف مسافر حب هند يحب لها السعادة أولا ويحبها لنفسه ثانيا ، فإن أبى القدر إلا أن يفصل بين هاتين السعادتين آثر مسافر أن تكون سعادة هند هى الأولى وما عليه أن يشقى فى سبيل من أحب ، ثم ما باله لا يرى هذا الشقاء لوناً من ألوان التضحية تبذله نفسه سخية به .

وما كان مسافر يعلم أن هنداً غاضبت الفاكه وأبت أن تعود إليه ، فلقد فعل ما فعل ليرد الفاكه إلى عقله ويرده إلى الصواب لتجرى الأمور بين هند والفاكه على ما كانت عليه .

لقد رضى مسافر أمره الذى صار إليه وصبر له يسمع عن هند أنها قانعة فيقنع ، ويسمع عن آل هند أنهم مطمئنون فيطمئن ، ويسمع عن هند أنها قلقة فيرجو لها أن تألف حياتها وتمضى ، ويسمع عن الفاكه أنه قلق بقلق هند فيرجو له أن يألف حياته ويمضى .

وعندما وقعت عين مسافر على الفاكه مرتحلا إلى حيث هو مقيم ظنه قد جاء لشأن من شئونه الكثيرة فتقدم منه يرحب به .

غير أن مسافراً وجد من الفاكه وجهاً لم يألفه . لقد ابتعد عنه الفاكه من قبل حين كانا معاً فى حى واحد ، ولكنه كان ابتعاد لم تخلقه خصومة ، وكان الفاكه يعتذر عنه أعذاره . ولقد عاشا تلك الفترة التى سبقت نزوح الفاكه عن حيه لا يلتقيان ولكنهما صديقان . وهذا الوجه الذى يحمله الفاكه اليوم غير ذلك الوجه الذى عرفه منه مسافر ، هذا وجه ينبئ عن شر وذاك وجه لا ينبئ إلا عن خير . لذلك اختلف الوجهان على مسافر ، ودله هذا الاختلاف على ما بينهما من فرق بعيد .

وما بنفس مسافر للفاكه من شر فعز عليه أن يجد فى نفس صاحبه هذا الشر . ولقد أحس أنه إن آذى الفاكه فسوف يؤذى هنداً ، وإن أرضاه فسوف يرضى هنداً وعز عليه أن يثير من جديد همًّا لأهل هند لهذا لاَنَ للفاكه يريد أن ينزعه عن شره ، فما من شىء يثار بينهما على أى وجه ولأى منهما تكون الغلبة فيه إلا أثار شرًّا كبيراً على أهل هند وهند سعادتها من سعادة أهلها ، وما نفسه بطيبة لأن يلقى أهل هند شرًّا فتلقى هند شرًّا .

بهذا كله امتلأت نفس مسافر وبغيره امتلأت نفس الفاكه ، وقد جلس كل منهما إلى صاحبه .

* * *

١٦

لقد كان بيت مسافر على أول الطريق ، وكان على الفاكه وهو داخل إلى ذلك الحى أن يعرج بمسافر ، يعرج به أولا ليتزود ماء ، ويعرج به ثانياً ليعرف من أهله خبر مسافر .

وماكان الفاكه يعلم أنه لاقٍ عدوه الذى خرج يطلبه أول ما يلقى ، وماكان يعلم مسافر حين خف يلقى هذا الطارئ أنه لاق الفاكه ، وعلى حين تجهم الفاكه للقاء عدوه هش مسافر للقاء صديقه . ونظر هذا الوجه الباش إلى هذا الوجه العابس يريد أن يؤنسه ، وحملق هذا الوجه العابس فى هذا الوجه الباش يريد أن يوحشه . وطالت بين الرجلين النظرات لا يقوى أحدهما على الكلام . غير أن مسافراً كان هش النفس وكان مضيفاً فكان أسرع من صاحبه إلى الكلام . قال ما يقول رب البيت للطارئ ، وقال ما يقول الصديق ثم قال ما يقول حبيب لهند لمن فى بيته هند .

ولشد ماكانت دهشة مسافر حين وجد الفاكه جامداً لا يتكلم ، ووجده عابساً لا تنفرج له جبين . ولشد ماكانت دهشته حينما وجده يهم أن يمسك بقوسه .

عندها علم مسافر لم كان الفاكه عابساً ، ولم خرج هذه الخرجة . فلم يزد على

أن مد يده فى خفة إلى قوس صاحبه فأمسكها ثم نظر إليه يقول : وما يحملك على هذا يا فاكه ؟ .

ويحاول الفاكه أن يجذب القوس من يد مسافر ، ومسافر يجاذبه إياها وهو يعيد عليه قوله : وما يحملك على هذا يا فاكه ؟

يقولها مرة ومرة والفاكه صامت لا يقول شيئاً متجهم ينفث ناراً .

وفى غمرة التشاد بين الاثنين تقع القوس فى يد مسافر ، وكان جلداً قوياً ، فيحوزها دونه ويطوّح بها بعيداً ، ثم يلتفت إلى الفاكه هادئاً يقول له : والآن يا فاكه أما آن لهذا الشر بعد أن خرج من يدك أن يخرج من قلبك ؟

وينظر إليه الفاكه مرة وينظر إلى قوسه التى طُوّحت بعيداً مرة ويقول : إن الشر الكمين فى قلبى كفيل أن يملأ يدى مرة أخرى به .

ويقول مسافر : مانصيبى أنا من هذا الشر؟

ويقول الفاكه : كله لك .

ويقول مسافر : وماهى جريرتى عندك فأكون أنا المستحق لشرك كله؟.

ويقول الفاكه : إنك لتعلمها يا مسافر .

ويقول مسافر : هلا أعلمتنى بها فإنى أجهلها واللات والعزى .

ويقول الفاكه : تجهلها وأنت الذى صنعتها .

ويقول مسافر : ما صنعت شيئاً أجهله يا فاكه .

ويقول الفاكه : اذكر أهْوَل ما صنعت تجده الذى أريد .

ويقول مسافر : لا أجد فيما صنعت شيئاً يهول يافاكه .

ويقول الفاكه : ألا تذكر شيئاً بينى وبينك ؟ .

ويقول مسافر : أذكر أنى عاشرتك بالمعروف وخرجت عنك كما عاشرتك .

ويقول الفاكه : ألم يبلغك أنى تزوجت هنداً ؟

ويقول مسافر : وهل تغيب هذه عن مسافر؟

ويقول الفاكه : ألم يبلغك أنى غاضبتها ؟

ويقول مسافر : قد يكون بلغنى شيء من ذلك

ويقول الفاكه : ألم يبلغك أن هنداً تؤثرك علىّ ؟

ويقول مسافر : كيف يا فاكه ولا يزال الحبل بينكما موصولا وأنّى لرجل بعيد مثلى أن يدخل عليكما فيما بينكما . أتريد يا فاكه أن تذكرنى بحبى القديم لهند ؟ ما أنكره عليك ، وما أنت الذى تعلمه وحدك . لقد علمه الحى أجمع . ولقد نسيت هند ونسى الناس وبرهان ذلك أنك بَنَيْتَ بها .

ويقول الفاكه : إننى أحب هنداً يا مسافر .

ويقول مسافر : زادك الله حبًّا لها يا فاكه فهى خير من يحب .

ويقول الفاكه : ولكن القلب لا يتسع لا ثنين يا مسافر .

ويقول مسافر : أتعنى أنك تحب مع هند أخرى ؟

ويقول الفاكه : أعنى قلب هند لا قلبى .

ويقول مسافر : ومن هذا الذى يزاحمك على قلب هند ؟

ويقول الفاكه : عدو لى لن أهدأ حتى أقتله .

ويقول مسافر : إن كان هذا حقا فلا من يلومك عليه . ولكن رفقاً بنفسك يا فاكه أترى هنداً تؤثره عليك ؟ أتراها تريده ولا ترغب فيك ؟

ويقول الفاكه : كل هذا رأيته يا مسافر .

ويقول مسافر : إذن فلا لوم على عدوك وما أحراك أن تفكر فى نفسك قبل أن تفكر فى خصمك ، عد إلى نفسك يا فاكه فهى الملومة لأنها تريد أن تقبض على ناصية القلوب ، تحركها كيف شاءت . لك أن تفعل هذا فى غير الحب يا فاكه . احمل الناس على أى شىء إلا على الحب فهو من اختيار القلوب ولا تَـلُـمْ عليه القلوب . دع هنداً وشأنها يا فاكه إن كنت تحس منها هذا الذى ذكرت فلن يخلص لك قلب هند أبداً وما أنت مُحوّلها إليك إن قتلت منافسك هذا الذى تؤثره بحبها ، بل ستزيدها بذكراه لوعة وستزيدها عنك بعداً .

ويقول الفاكه : إنك تنصح لنفسك يامسافر ولا تنصح لى . أرأيت إلى الصيد يتنازعه اثنان كلاهما إليه لهف جائع . ثم أرأيت إن ظفر به أحدهما هل يرتد الآخر إلى رضى وقنوع أم يزيده ذلك جوعاً إلى جوعه ينقلب به خصماً لصاحبه بعد أن كان خصماً للصيد . أنا ذلك الصائد الذى حُرِم صيده يا مسافر وأنت ذلك الصائد الذى استأثر بهذا الصيد دونى . ترانى ما أنا فاعل بك ؟

ويقول مسافر : لقد أشركتنى فى صيدك يافاكه وإنى عنه لبعيد ، لقد أثرت فى نفسى شيئاً عن هند فوصلت معك الحديث لأستوثق ، وظنى بهند يا فاكه فوق ما ظننت بها . قد لا يكون هناك شىء من هذا الذى ذكرت عن هند . عد إليها يا فاكه فأنت زوجها ، واجلس إليها كما يجلس الزوج من زوجه ، كاشفها بما فى

نفسك فلعل هنداً لا تعرف شغفك بها . عُدْ إليها بهذا يا فاكه فسوف تجد هنداً على الإخلاص لك .

ويقول الفاكه : إن هنداً لن تنساك يامسافر وهى حريصة على أن تكون لك .

ويقول مسافر : مرحباً بهند إن فكرت فى ذلك أو لم تفكر : ولكنك يا فاكه قد علمت أن دون ما تقول عقبات وما أرضى لهند أن تتورط فيها وما أحب لأهلها أن يحسوا أنى أدخلت عليهم شرًّا لن تنجو منه هند .

ويقول الفاكه : هذا من أساطيرك التى دخلت بها عليها فأفسدت قلبها وعقلها وما عادت تستقيم الحياة لها ، ولوكنت تنصفها كما تدعى لخرجت من الوجود لتنعم هند بهذا الوجود .

ويقول مسافر : أقسم لوعرفت أن هذا يرضى هنداً لفعلته . ولكنك يا فاكه جد مغرق فى تخيلك ، فهند لم تعرفنى إلا اسماً تعيش عليه كما يعيش الناس على الأسماء فى السير التى يمجدونها ويحبونها ، تحرص على بقائى فى الحب كما يحرص هؤلاء على تلك الأسماء منقوشة فى أذهانهم أو على ألواح الأحجار ، وإن كنت تحب هنداً حقًّا يا فاكه كما تقول فأحب لى بقائى ليبقى اسمى مقروناً به تأنس به هند ما عاشت .

ويقول الفاكه : وهل ترى حب هند لك يغنيه هذا .

ويقول مسافر : لقد أغناه هذا وعاشت به هند . عاشت تذكرنى وتحبنى أن أذكرها ، عشت أنا فى مخيلتها وعشت أنت فى أحضانها فلك من هند ما تحبه ولى منها ما أحبه . كلانا راض وكلانا قانع .

ولكنك يا فاكه تأبى إلا أن تخاصمنى على شىء لا أوذيك به ولا هو لك واغتصبته أنا منك . هو لهند يا فاكه لا سلطان لك عليها فيه وإن كنت مستطيعاً أن تحد عينيها عن البصر وعقلها عن الشرود وخيالها عن أن يسبح فأنت مستطيع أن تحول بينها وبين أن تذكر شيئاً يؤنسها لتعيش على الأنس به .

ويقول الفاكه : لقد استعصيت على هند بهذا الذى تقول .

ويقول مسافر : ما أظنها تستعصى عليك أخيراً بعد أن قبلتك أولا .

ويقول الفاكه : ألم يبلغك يا مسافر خبر تسريحى لها ؟ .

ويقول مسافر : أو سرحتها وأنت تحبها ؟ .

ويقول الفاكه : إن الزوج غيور يا مسافر فما بالك إذا كان هذا الزوج محبًّا ؟.

ويقول مسافر : ولكنك عسوف يا فاكه .

ويقول الفاكه : إن الشرف فوق الحب يا مسافر .

ويقول مسافر : أعن هند تذكر هذا ؟ .

ويقول الفاكه : لقد قضى الكاهن لها .

ويقول مسافر : أوحملت هندا هذا . من أى صنف من أصناف المحبين أنت ؟ وأى حب هذا الذى تكنه لهند ؟ إنك لتحبها حب السلعة ! . إن بدا لك فيها عيب رددتها على صاحبها ولوكنت لها مؤثراً لجهدت فى أن تصلح ما بها من عيب لتسلم لك ، لا تيأس فكل ما تبذله فى سبيل ذلك حب بعد حب .

ويقول الفاكه : لقد أنسيت بيتك يا مسافر .

ويقول مسافر : وأنت كذلك أنسيت قلبك يا فاكه .

ويقول الفاكه : لقد صرفتنى عما جئت له .

ويقول مسافر : وهل جئت لشىء يا فاكه ؟ .

ويقول الفاكه : جئت لأمر عظيم .

ويقول مسافر : وهل شىء أعظم من أن ألقاك فأصلح ما بينك وبين هند .

ويقول الفاكه : ليتك تستطيع .

ويقول مسافر : عد إليها يا فاكه واستحلفها بما بقى لى فى قلبها إلا رضيت عنك .

ويقول الفاكه : إنك لتحملنى سفها .

ويقول مسافر : لقد عدت إلى طيشك يا فاكه .

ويقول الفاكه : وهل ترانى أنسيته يا مسافر .

ويقول مسافر : إذن فأنت لا تزال على الشر بى .

ويقول الفاكه : وهل أتحول عنه .

ويقول مسافر : إذن فاخرج عنى يا فاكه وضم إليك قوسك وأظننا لن نلتقى بعد هذه .

* * *

١٧

لقد خرج الفاكه من عند مسافر بالرأس الذى دخل به . ولقد كاد مسافر يُثْنيه شيئاً عن عزمه ولكنه ماكاد يفعل حتى رده ثباتاً على عزمه .

ولقد خلا مسافر إلى نفسه بعد أن خرج عنه الفاكه وهو يظن أنه أنصف وأنه بصّره وأنه هيّأه لشىء جديد .

ماكان يعلم مسافر أن هنداً تأبت على الفاكه واطرحته ، وماكان يعلم مسافر إلا أن هنداً تحمل له شيئاً ، أما أنها تؤثره وترغب عن الفاكه من أجله فذلك شىء لم يكن يعلمه .

خرج الفاكه يفكر فيما يشغله وخلا مسافر إلى نفسه يفكر فيما شغله ، الفاكه بين إقدام وإحجام أيقضى على عدوه أم يبقى على صديقه ؟ أيقتل مسافراً العدو أم يبقى على مسافر الصديق ؟ لقد أخذ مسافر معه وأعطى فكشف عن شىء له وشىء عليه ولكن الذى له لم يكد يلين له قلب الفاكه حتى قسا بالذى عليه .

لقد أقام الفاكه ليالى فى هذا الحى الجديد لا يبرح يعاوده إسماحه فيذكر مسافراً بصفحته الطيبة ويعاوده عنفه فيذكر مسافراً بصفحته السيئة يقعد ويهم وينسى ويذكر فإذا هو أكثر قلقاً مما كان فى ظل هند .

وما يكاد خيال هند يطيف برأسه ويمثل فى وهمه حتى ينسى مسافراً بصفحته الطيبة ويذكره بصفحته السيئة وإذا هو عازم وإذا هو مصمم وإذا قوسه على

كتفه وسهامه تحت إبطه وإذا هو خارج يمضى لطيته .

ولقد أقام مسافر ليالى لا يبرح قد انكشف له أمل جديد وتعلق بهذا الأمل الجديد خاطر جديد وشغل بهذا الخاطر الجديد رأس وقلب يملى هذا على هذا ويستوحى ذاك من ه ا ، فإذا مسافر قد امتلأ هو الآخر عزماً وامتلأ تصميماً ، وإذا هو خارج قوسه على كتفه وسهامه تحت إبطه يمضى لطيته .

غير أن الذى خرج له الفاكه كان غير الذى خرج له مسافر ، فلقد خرج الفاكه ليقتل مسافراً ، وخرج مسافر ليلقى هنداً .

لقد وجد الفاكه مسافراً يعترض الطريق بينه وبين هند ، من أجل ذلك خرج ليلقاه ، ووجد مسافر الفاكه قد أخلى الطريق بينه وبين هند من أجل ذلك خرج ليلقاها .

ولقد وجد الفاكه للذى عزم عليه أسباباً ودوافع ، ووجد مسافر للذى عزم عليه أسباباً ودوافع . أما أسباب الفاكه ودوافعه فقد مرت بك وشاركته فيها وأما أسباب مسافر ودوافعه فها أنت ذا على أن تشارك فيها .

فلقد علمت كيف أفاد مسافر من حديث الفاكه أفاد منه أن هنداً تقلوه وأفاد منه أن هندا تؤثره عليه صرح الفاكه من ذلك بشىء وهو لا شك قد كتم أشياء وأفاد منه أن هنداً قد قطعت ما بينها وبينه وأبت أن تعود إليه .

علم ذلك كله مسافر من حديث الفاكه عفواً لا قصداً .

إذن فالأمور قد تبدلت بين يديهما عنها وعن أهلها . أما عنها فقد ملكت أن تخرج الفاكه من الميدان ، فإذا ملكت ذلك فقد ملكت أن تكون ذات رأى ، وأما عن أهلها فما الظن بهم إلا أنهم معها ، وحسبهم أنهم آذوها فيما تحب وأرغموها على مالم تكن تحب ، وحسبهم ما قاسوا معها من هذا الذى أرغموها

عليه . وما الظن بهم إلا أنهم لانوا وهانوا حين اشتدت هند وقست .

هكذا قلّب الأمور مسافر ، وإلى هذا الرأى انتهى مسافر ولكنه على هذا وجد نفسه يملك الأسباب ولا يملك الدوافع ، ولا يملك الأسباب التى من أجلها يقدم ولا يملك الدوافع التى من أجلها تقدم هند ويقدم أهل هند .

فهو يعلم أن هنداً على حبها أبية يستعلى إباؤها حبها ، لا ترضى أن تعذب فى إبائها على حين ترضى أن تعذب فى حبها ، فإباؤها قضية عامة بينها وبين المجتمع الذى تعيش فيه ، وحبها قضية خاصة بينها وبين الإنسان الذى تحبه ، وهى فى قضيتها الأولى عليها أن ترضى المجتمع لتطمئن ، وهى فى قضيتها الثانية عليها أن ترضى نفسها لتسعد . ورضاها إليها ورضى المجتمع إليه ، وهى تملك مالها ولاتملك ما للمجتمع ، تملك أن تفرط فيما لها ولا تملك أن تفرط فيما للمجتمع ، تملك أن تشقى شقاء بينها وبين نفسها ، ولا تملك أن تشقى شقاء بينها وبين المجتمع ، فشقاؤها الأول العاتب فيه عليها نفسها ، والخصومة بين الإنسان ونفسه مرة ولكنها لا تؤذى ، وشقاؤها الثانى العاتب فيه عليها المجتمع ، والخصومة بين الإنسان والمجتمع مُرّة ولكنها تؤذى .

هكذا رأى مسافر هنداً فخمد فيه دافع من الدوافع ثم فكر فى أمر أهلها فلم يرهم قد تغيروا شيئاً عما تركهم وما بهم حب له فينزلون عن شىء لشىء بل لا تزال قلوبهم مملوءة بغضاً له . وما الظن بهم إلا آبِينَ عليه ما سوف يَقْدَم به . وهكذا رأى مسافر أهل هند فخمد فيه دافع من دوافعه .

ولكن الحب كما ييأس يأمل ، يصنع هو اليأس وينسج خيوطه محكمة دقيقة لا نفاذ منها ويصنع هو الأمل يهلهل به ذلك النسج ويخرج منه .

وكما صنع مسافر ذاك اليأس صنع هذا الأمل . فلقد ذكر ما أسداه لهند

وأهل هند حين تمثل لهم كاهناً يملى فى شأن هند . ولقد خبر مسافر ما عند الكهان وما علمهم إلا يهرفون بما لا يعرفون . ولقد كانت هند معرضة لشىء من هذا معرضة لأن يخطئ الكاهن فى شأنها فتعود بخيبة الدهر ويعود أهلها بذل لا يبلى . وقد انقضى الأمر على خير حال خرجت منه هند عزيزة وخرج منه أهلها أعزاء ولكنهم لم يذكروا هذا الذى أعزهم ، يذكرونه كاهناً من الكهان أجروه أجره على ما فعل وانتهى ما بينهم وبينه لا يذكرونه مسافر بن عمرو ولا يذكرون ما ركب مسافر من أجل ما فعل . ثم هم لا يذكرون أن مسافراً فعلها غير مغرض ، فعلها من أجل هند ومن أجل أهل هند ، فعلها لتعز هند ويعز أهل هند ، فعلها لتعود الحياة صفواً بين هند والفاكه فما كان أحرصه على ألا يقال عن هند إنها لاغية ، وما كان أحرصه على ألا يقال عن هند آذت زوجاً لتعود إلى حبيب .

وهكذا فكر مسافر فإذا به يملك دافعاً من الدوافع . وهو إن قدم بهذا على أهل هند أولا ملأهم قناعة به لأنه ناصرهم لا يبغى شيئاً ، ثم هو إن قدم به على هند ثانياً ملأها قناعة لأنه ناصرها يستملى عن حبه . وما عليها بعد من إبائها فلا تسريب عليها إن فعلت بل سينصفها المجتمع عليها .

وهكذا فكر مسافر فإذا به يملك دافعاً من الدوافع ولكن هنداً وأهل هند سوف لا يصدقون هذا منه ، فلقد قصدوا إلى الكاهن وما كان هذا الكاهن غير مسافر ، وأنى لمسافر أن يقيم الدليل على ما يقول .

وكاد مسافر أن يفقد دافعاً يمحو الدوافع كلها ولكنه سرعان ما ذكر ما كان بينه وبين هند ساعة ضغط على يدها وساعة أطال النظر إليها .

عندها اطمأن مسافر إلى أنه يملك الأسباب والدوافع وخرج يطلب هنداً

يطلبها لأن شيئاً منه كفر عن شيء منه فعاد يملك صفحة نقية سوف لا يردها فى وجهه أهل هند ، وخرج يطلب هنداً لأن هنداً بدت مؤثرة له وما كان يمنعها إلا إباؤها وها هو ذا إباؤها قد بات يرجحه حبها .

ولقد وضع قوسه على كتفه وسهامه تحت إبطه لأنه كان سوف يقطع طريقاً شاقًّا طويلاً لا يأمن فيه على نفسه ، من أجل ذلك تهيأ بما يتهيأ به الخارجون فى مثل هذه السبيل الموحشة .

ولكن مسافراً ما يكاد يأخذ فى السير وما يكاد يبعد عن الحى كثيراً حتى يكون الفاكه فى أثره ويلقاه الفاكه بقوسه وسهامه فيظنه خرج لشر ويذكر كلمته الأخيرة له ، فيتأكد عنده هذا الشر . وما إن يذكر الفاكه هذين حتى يذكر معهما ثالثة يذكر همه به ويذكر خروجه إليه فينسى إسماحه ويعاوده عنفه وإذا هو رام بسهمه . ويفطن له مسافر فيرمى مسافر ويرمى الفاكه ويسرع الفاكه ويبطئ مسافر فإذا مسافر صريع وإذا الفاكه ناج على ناقته يعود أدراجه إلى هند .

* * *

١٨

لقد نسيت هند الفاكه بعد ما قطعت ما بينها وبينه ، ولم تعد تذكره ، فقد دخلت تعرفه زوجاً كفئاً لها وندًّا تقيس الأمور بمقاييس استقرت فى ذهنها ، وكسبتها إياها تلك الصلة بينها وبين مسافر التى أذكت منها قلباً وأشعلت فيه عاطفة الحب ، والتى أيقظت منها رأياً أفادها خبرة حين تعطى وحين تمنع ، والتى دفنت فيها عناداً خلّفه فى نفسها حملها عليه ما ليس لها هوى .

فإذا هذه المقاييس تختل بين يديها فلقد كان الفاكه غير كفء لها ولا ند . قاسه أهلها بمقاييسهم ثراء ونسباً وقاسته هى بمقاييسها نفساً ورأياً . وكانت على أن تنسى عنادها الذى دخلت به ، ولكن حين اختلت مقاييسها ردت إليه ، فإذا هى أقوى عناداً مما دخلت .

لقد أوشكت أن تحيل حبها لمسافر إخلاصاً للفاكه دون أن تنسى مسافراً ودون أن تهون من إخلاصها للفاكه ولكن الفاكه أرغمها على أن تذكر مسافراً وتقلل من إخلاصها له هو . وقد أوشكت أن ترعى الفاكه وتسد عليه خلله فإذا هو يرقبها ليتلمس فيها خللاً ، ولقد أوشكت أن تنسى أنها مغتصبة فقسا الفاكه عليها ليؤكد لها ما حاولت أن تنساه .

ولكنها على هذا صبرت لا تريد أن تنكأ جرحاً يصيب دمه أهلها وهى بهم عزيزة وعليهم حانية ويصيب إباءها وهى به عزيزة وعليه واعية .

ولكن الفاكه نكأ عليها جرحاً أدمى كاد أن يصيب أهلها ويصيبها معهم بهول عظيم ، من أجل ذلك غاضبت هند الفاكه حين ملكت حقها وحين ملكت براءتها وعزمت على ألا تتراخى فى هذا الحق ولا تهوّن من تلك البراءة .

ولو ملك الفاكه الحق عليها ما عفا عنها ، ولو كشف له أنها غير بريئة ما عاد إليها . فما بالها إذا ملكت حقها وملكت براءتها تعفو عنه وتعود إليه .

ما يملكه الفاكه تملكه . هكذا رأت نفسها بعد أن صحا فيها عنادها فإذا هى تقول وتفعل . ولم يملك أبوها كما لم يملك أهلها أن يحملوها على رأى غير رأيها . لأنها كانت هنا تملى عن رأيهم فلم يخالف رأى رأياً فكسبت هند بهذا فى هذه لتكسب بغير هذا فيما يقبل من أمرها ، ولقد ذكرت هند مسافراً بعد ما نفضت يدها من الفاكه ذكرًا يسيراً ، ذكراً لا يخرجها عما رسمت لنفسها . ذكرته لتأنس باسمه . وسرعان ما قر فى خيالها حين ذكرته ذاك الذى تخيلته مع الكاهن فصدقت نفسها وكذبتها ، ثم أخذت تنسى .

ولكنه كان تاريخاً على كل حال زحم فكر هند ، تاريخاً لها مع مسافر لا يزال موصولا ترعاه على صورة ، وتاريخاً لها مع الفاكه قد انقطع وما نظن هنداً عادت تفكر فيه ، وتاريخاً لها مع بيتها لا يزال موصولا هو الآخر ترعاه على صورة أخرى .

ولقد خرجت من هذا كله بدروس كثيرة أفادت من حبها لمسافر وحب مسافر لها ، أن المرأة إن ملكت قلبها لا تملك رأيها فارتدت تستقوى ، وعرفت من زواجها بمسافر أن المرأة لا تملك فى هذا قلباً ولا رأياً فارتدت تستقوى ، وعرفت من تاريخها مع بيتها أن المرأة جزء من أهلها يرون لها بقلوبهم وآرائهم فارتدت تستقوى ، وإذا هى بعد هذا كله تملك شيئاً من القوة ولكنها لم تعرف

إلى أى مدى هى مفيدة من تلك القوى .

ويقصد إلى بيت هند خاطبان ، هذا راغب فيها ، وذاك راغب فيها وماكان هذا أو ذاك بعيداً عما مر بهند من أحداث ، فاطمأنت على الذى بينها وبين بيئتها وازدادت قوة على أمرها وثقة بما تأتى وعزة بمثلها ، وكان هذا الذى يعنيها من هذا التاريخ كله .

وما رغب أبوها فى واحد منهما قبل أن ترغب هى فيه ، ولا استطاع أن يملى هنا رأيه كما أملاه من قبل ، فهند قد شبت عن الطوق وقد جربت ما فرض عليها وذاقت هى من هذا وذاك شيئاً فوق ماذاقه أهلها .

أحس أبوها ذلك ، فلم يشأ أن يقضى فيما يتصل بها دون أن يكون لها رأى وأحست هى به فنشطت هى تبدى هذا الرأى .

وما فعل أبوها غير أن وصف لها هذا كما وصف لها ذاك ، وصفها أمينا فى هذا الوصف ، فهو يعنيه أن ينظر إلى هند كما ينظر إلى نفسه ، ويعنيه أن ترضى هند لتستقيم لها الحياة كما يرضى هو لتستقيم له الحياة مع هند .

وجلس عتبة إلى ابنته يرى لها وترى هى لنفسها ، وإذا هند تختار مرجحة وصفاً على وصف وطبعاً على طبع وخلقاً على خلق ، فما رأت هذا أو ذاك فتقحم فى اختيارها شيئاً غير الوصف والطبع والخلق .

وما ننكر أن هنداً أحست شيئاً من الظلم مع هذا ، ولكنها أحست شيئاً من النصفة ، فنسيت ظلمها بنصفتها أوكادت .

عندها ذكرت مسافراً ، ذكرته لأن زواجها منه لو تم كان يعطيها حقها كاملا ، وكانت ترى معه لو تم أنها لم تظلم فى شىء . فما هذا الوصف ولا هذا الطبع ولا ذاك الخلق يُغْنى المرأة غناءها كله .

ولكنها ما ذكرت حتى نسيت . فهى موصولة ببيئتها وبيئتها موصولة بعزتها وما تريد أن تفقد بيئتها فتفقد عزتها .

من أجل ذلك لم تشغل هند بغير حقها الذى آل إليها وحمدت لنفسها ما كسبت ، وأعلنت رأيها تختار واحداً من الاثنين فاختارت أبا سفيان ولم تختر سُهَيْل بن عمرو بن عبد شمس . وكان كلاهما كفئاً لها .

وكان سهيْل – كما عرفه أبوها وكما وصفه لها – سخيًّا شأنه فى ذلك شأن الفاكه ، وكان أبو سفيان – كما عرفه أبوها وكما وصفه لها – حازماً . هذا على شرفهما معاً وسيادتهما فى قوميهما معاً . ولكن السخاء ميز سُهَيْلا والحزم ميّز أبا سفيان .

والسخاء صفة معها الإسماح ومعها اليسر فى الطبع والخلق ومعها اللين ، والحزم صفة معها البأس ومعها العنف فى الطبع والخلق ومعها الشدة .

وأول الرجلين قد جربت مثله هند فوجدت أن السخاء يتبعه التفريط وأن التفريط يعقبه الندم وأن الندم يعقب حسرة ، فإذا السخى صاحب خلقين بعد أن كان صاحب خلق واحد ، خلقين متضادين ينفر أحدهما من الآخر يشقى بهما هو أولا ويشقى بهما من فى يده ثانياً . وكان هذا لوناً ذاقته فما باله لا تذوق غيره .

ثم هى غدت تحمل نفساً فيها مثل هذا الحزم الذى حدثها أبوه عنه فى أبى سفيان ، فما بالها لاتختار من فى مثل حزمها أو من تكون هى فى مثل حزمه .

لقد رأت الحياة صراعاً فهى تشتهى هذا الصراع تملك فيه عدتها وما أحب إليها أن تلقى من يملك مثل عدتها . وأحب شىء إلى النفس أن تلقى ندها . فهى به مستأنسة نوعاً من الأنس ، سواء أكان هذا اللقاء على خصومة أم كان على صفاء . ففى كليهما تتجلى للنفس قواها ، وما خلقت هذه القوة لتكمن ولكن

خلقت لتظهر ، ولقد انحبست تلك القوى فى نفس هند دون أن تهيئ لها الحياة ميداناً فانطوت هند على نفسها لا تعرف ما تملك ، ولا يعرف الناس هذا فيها . لم تجد هذا الميدان مع أهلها إلا فى شيء قليل إن جاوزته عدت خارجة على المجتمع ، وحين حاولت أن تجده مع الفاكه كان ذلك ختام ما بينها وبينه .

لهذا آثرت هند أبا سفيان ولم تؤثر سهيلا وبدأت تدخل الحياة التى آثرتها واختارتها ، وما نسيت أنها شريكة فى هذا الصراع لرجل عرفته من قبل ، ألزمتهما الحياة بهذا الصراع ، حمل هو فيه عبئه جلداً صابراً يغالب فيه الحياة وما قدر له أن يغلب الحياة . وحملت هى فيه عبئها جلدة صابرة تغالب الحياة وما قدر لها أن تغلب الحياة . هى فى سبيل وهذا الرجل فى سبيل ، تختلف سبيله عن سبيلها شيئاً فهو قد أبى أن يتزوج غير هند ، لأنه رجل يملك إباءه وقبوله . وهى قد رضيت أن تتزوج غير مسافر لأنها امرأة ليس لها الإباء كله ولا القبول كله . ثم هو لا يعاب عليه ألا يتزوج وهى يعاب عليها ألا تتزوج .

وأظنك عرفت هذا الرجل الذى شاركها هذا الصراع وشاركته هى هذا الصراع ، فهو المحب الأول الذى لم يكتب له النجح فى أمره معها ، ولم يكتب لها هى النجح فى أمرها معه ، وتباعد ليتحمل هو نصيبه فى الصراع ولتحمل هى نصيبها فى هذا الصراع على اختلاف ما بين الصراعين . ينظر هو إليها وتنظر هى إليه فيمعن كل منهما فى صراعه ، هند تصارع من أجل أن تنسى ومسافر يصارع من أجل أن يذكر .

* * *

١٩

واستقامت الناقة على أول الطريق مع المساء تلطم بأخفافها الغلاظ وجه البيداء ، وتمد عنقها تشق به لجسمها فى هذا البحر المائج من رمال وهواء ، وقد استوى الرحل على ظهرها يئن أنيناً متقطعاً يذوب هنا وهناك أصداء ومن فوق هذا الرحل جلس الفاكه يسمع لهذه اللطمات وذاك الأنين فى هذا الجو الساهم فيخال أنه فى مأتم مسافر وهذه صورته فيستوحش شيئاً وتجد نفسه شيئاً .

ويهم يدفع عن نفسه ما استوحشت له فيقبل على الناقة يحسها ، ويقبل على رحله يسويه ، وإذا أخفاف الناقة تمس الرمال مسا خفيفاً سريعاً يستحيل توقيعاً مرقصًا ، وإذا الرحل فى استوائه ينغم تنغيماً مؤنساً ، وإذا القمر يطالعه سافراً فيخال أنه فى عرس هند وهذه صورته فتهش نفسه شيئاً وتنبسط شيئاً .

ما استوحشت نفس الفاكه إلا قليلا ثم عادت إلى أنسها وما حاول الفاكه أن يذكر أنه قتل صديقاً بل حاول أن يذكر أنه قتل عدوًّا ، وما حاول أن يجعل من نفسه جانياً ، بل حاول أن يجعل من نفسه مجنيًّا عليه .

لذلك كله لم يذكر مسافراً بخير وأخذ يفكر فيما هو مقدم عليه بعد أن خلا له وجه هند ولن تعود بعد اليوم مشغولة بمسافر يؤرق عليها بالها فتؤرق هى عليه باله وتفكر فيه فتنقطع عن التفكير فى غيره وتقيم حولها دنيا عابسة مكدودة لاظل فيها لأمن ولا دعة ولا نفع فيها لزوج أو أهل .

لقد اطمأن الفاكه بعد ما قتل مسافراً أن شيئاً من هذا لن يكون ، وقد تحزن هند ، ولكنها سوف تنسى ، فحياة مسافر امتداد لأملها والأمل يبعث هذا الفكر الشاغل ويبعث غيره . وموت مسافر انقطاع لأملها وانقطاع الأمل يبعث شيئاً من الحزن لا يلبث أن يزول .

وجدّ الفاكه فى سيره طروب القلب للقاء هند مثقل الرأس يفكر بما سوف يلقاها به ، أيبدو فى الحى أنه قاتل مسافر وأنه لهذا خرج ، أم يبدو على صورة أخرى ، صورة الرجل الذى يحمل خبر مقتله .

والفرق بين الاثنين كبير فى نفس هند ، فهى فى الثانية سوف تحزن على مسافر ولا تجد على الفاكه ولكنها فى الأولى سوف تحزن على مسافر وتجد على الفاكه .

وقد تغلو فى وجدها فتمعن فى انقطاعها عنه .

ولكنه إن فعل الثانية فسوف يخسر راحة نفسه . فلقد شفى بيديه غيظه وثأر لحقده ، يعنيه أن يكون الفاعل ويعنيه أن يكون القاتل فيتحدث الناس بذلك ويتحدث هو به ، وإن فعل الأولى فقد يخسر يد هند وقد لا يخسرها . عندها وجد الأولى ترجح الثانية فعزم على أن يقولها لا ينكر قتله لمسافر ولا ينكر أن يكون قتله له إبقاء على ما لآل هند فيرضى بذاك الآل وهنداً معهم بعد لأى .

ولم يفت الفاكه حين صرع مسافراً أن ينزع من أصبعه خاتماً له عرف به ليكون دليله عند القوم على أنه لم يقل زوراً .

وتمضى الليالى وإذا الفاكه بين قومه يحدثهم حديث مسافر وماكان معه ، بعنيه أن يسوق الحديث طويلا ليؤنس نفسه ، ويعنيه أن يسوقه مفصلا ليرضى

طمعه ، ويعنيه أن يعرض على من يحدثهم خاتم مسافر إذا ما فرغ من حديثه ليرضى صدقه .

وكانت منازل الفاكه تبعد شيئاً عن منازل عتبة ليس كل ما يجرى هنا يصل نبؤه فى حينه هناك . بل قد تجرى هنا أشياء لا تبلغ هناك إلا بعد أيام وليال . ولقد رجع الفاكه فلم يعلم بهذا حى عتبة ، وتزوجت هند فلم يعلم بهذا حى الفاكه . ويتناقل المحيطون بالفاكه حديثه عن مقتل مسافر ينقلونه إلى غير المحيطين ، ويتناقل المحيطون بعتبة حديث زواج ابنته هند من أبى سفيان ، ينقلونه إلى غير المحيطين ، فإذا الحديثان يلتقيان على مفترق الطريق ثم يمضى هذا ليدخل إلى حى هند ويمضى ذاك ليدخل حى الفاكه ، وإذا هند يبلغها مقتل مسافر ، وإذا الفاكه يبلغه زواج هند فتحزن هند على مسافر وتجدّ على الفاكه ، ويحزن الفاكه على فراق هند ثم يستحيل حزيناً على مقتل مسافر .

لقد خسر الفاكه زوجة وصديقاً . أما الصديق فقد خسره إلى الأبد ، خسره فى غير طائل فلقد كان مقتله شفاء لنفسه لو بلغ بمقتله ما أراد ، وحين لم يبلغ بمقتله ما أراد بكاه وحزن عليه . وأما الزوجة فقد خسرها إلى الأبد هى الأخرى ، فلقد غرس فى قلبها وجدًا عليه لا ينقلع وكان يظنه وجداً عابراً .

ولقد خسرت هند ذلك الاسم الحى الذى كان يذكّرها بنصيبها فى ذلك الصراع المقتسم بينها وبينه . وكان الظن أن اختفاء صاحب هذا الاسم سوف يختفى معه هذا الصراع ، فإذا اختفاء صاحبه يضاعف فى ظهور هذا الصراع ، وإذا هند تحمل العبئين معاً عبء مسافر فى هذا الصراع وعبئها ، وإذا هى أقسى ما تكون عناداً وأقسى ما تكون استمساكاً وأقسى ما تكون حفاظاً وتدخل الحياة

من هذا الباب الذى سُدّ فى وجهها لتكون بين الرجال كما هى بين النساء لها حقها الكامل فى الوجود يذكر الناس لها هذا كله ولا يذكرون معه أسبابه ودوافعه .

* * *

٢٠

ويشرق على مكة فجر جديد بعد ظلام مديد . تخبط فيه الناس وتخبطت معهم هند ، يرى الناس ولا رأى لهند ، كما كانت فى حياتها التى قدمناها كانت فى حياتها الدينية ، بل كانت فى تلك الحياة الدينية أقل نصيباً فلم تكن هذه الحياة للناس كلهم ، بل كانت لنفر منهم لهم فيها الرأى ولهم فيها القول . ولم تكن هند ذات رأى ولا ذات قول تشارك فى تلك الحياة الدينية مشاركة عابرة تعرف فيها شيئاً وتجهل شيئاً وما تجهله أكثر مما تعرفه .

ولكن هذا الفجر الجديد يعنى زوجها لأنه كان خصمه ، فهو لابد يعنيها لأنها دخلت معه الحياة لتصارعه ، فحيث كان كانت ، وحيثما كانا معاً فهى تنافسه من حيث لا يدرى هو أنه منافسة ، ومن حيث لا تدرى هى أنها منافسة ، ولكن هذا الدفين فى نفسها هنا متنفسه ، وهذه فرصته .

لقد غدت ذات عقيدة تُعلن عنها وما كانت من قبل تعرف عقيدة ولا تعرف كيف تعلن عنها ، ولقد غدت هند فى هذه العقيدة ذات رأى وما كان لها من قبل فى هذه العقيدة رأى ، وغدت هند تبز أبا سفيان وغير أبى سفيان من الرجال البارزين فى الدفاع عن هذه العقيدة ولقد كانت من قبل إذا ذكر هؤلاء لا يذكر اسم هند .

ما ورثت ذلك عن أب وأهل فأبوها كان ألين من أن يشتد لعقيدته وكان

ألين من أن يورث أولاده هذا التشدد ولكن هنداً شاركت أبا سفيان الحياة شاركت فيه حزمه فلم تشأ أن يغلب حزمه حزمها ، وشاركت فيه حفاظه للعقيدة فلم تشأ أن يبز حفاظه حفاظها ، وشاركت فيه حرصه على ما بين يديه من موروث فلم تشأ أن يفوق حرصه حرصها .

لم يكن هذا كله فى هند ولم يكن شيء منه فى هند لم ترثه عن أب أو عن جد ، ولكنها أورثته نفسها عن ذلك العناد الكمين الذى قر فى نفسها منذ أن دخلت الحياة فخسرت وكسبت وكانت خسارتها أكثر من كسبها .

وكان فى قلبها حقد على هذا المجتمع الذى فقدت فيه كثيراً وكسبت فيه قليلا فحقدت على صاحب هذا الدين ، وهى تظن أنها تحقد على الدين ، هى كانت تحقد على الناس وصاحب هذا الدين منهم ، ولا تحقد على الدين لأنها لم تكن تعرف ماذا كان فى الدين الجديد ولا ماذا كان فى دينها القديم .

لم تجر على موروث فنقول شابهت أباها ، ولم تجر على محفوظ فنقول ورثت وأفادت ، ولكنها كانت تجرى على هذا الهوى الذى خلقته فيها الأيام ، وما إن وجدت الباب مفتوحاً حتى دخلت فيه لم تتعثر .

تصارع لها وتصارع لمسافر وتصارع للذى فقدته بينها وبين مسافر ، وهى تحسب أنها تصارع لعقيدتها ، وتصارع لدينها .

ولقد أرضاها هذا الميدان الجديد كل الرضا فلقد عوضت نفسها ما حرمته ، فلقد كانت يُمْلى عليها ولا تُملى هى فأصبحت تُملى مع من يملون ويُطلب رأيها مع من يطلب منهم الرأى ، وعادت طورها فإذا هى تعيب على أبى سفيان باسم العقيدة وهى تعيب عليه باسم ذلك الحقد الدفين ، وتتنقص أبا سفيان باسم العقيدة وهى تتنقصه باسم ذلك الحقد الدفين .

تلقى مع زوجها وابنها معاوية وهم ركوب الرسول وهو ماش ويحب زوجها أن ينزل معاوية ليركب محمد ، وكان قديم هندٍ يملى عليها أن تسكت إذا قال الزوج ، ولكن جديدها أملى عليها أن ترد على الزوج ما فعل فلا ينزل معاوية ولا يركب محمد .

تظن أنها تقسو على محمد وهى تقسو على زوجها باسم القسوة على محمد فى أمر لا يملك زوجها فيه إلا أن يقرها أو يسكت عن فعلها دون أن يقرها عليه .

وهكذا وجدت هند من تلك العقيدة الثغرة التى دخلت فيها على الرجال ميدانهم فشاركتهم فيه وسبقتهم وماكان أعطشها لهذه .

وكانت إذا أغراها الكسب باسم العقيدة على أن تكسب بغيره اسمها وجد أبو سفيان الفرصة مواتية وفى يده فردها دون أن تكسب . وحين ذاقت الخسارة أولا فى غير ميدان العقيدة جانبت ما تخسر فيه إلى ما تكسب فيه وشغلت نفسها بتلك العقيدة شغلا حتى أصبحت لا تذكر هذه العقيدة إلا وذكر اسمها إلى جانبها .

إشباع لنهم قديم وتفريج عن كربة قديمة وتنفيس عن هم دفين أتيح لهند أن تفعله كله باسم هذه العقيدة . وكان أبو سفيان يحمى لتلك العقيدة لشىء يخافه على جاهه ، ولكن هنداً كانت تحمى لها لا لشىء لهذا الذى يشبع رغباتها هذه كلها .

* * *

٢١

ويشتد النضال بين العقيدتين وتقع الحرب الأولى فيقتل فيها أبوها وعمها وأخوها ، فتنضم فى نفس هند إلى الأسباب أسباب وإلى الدوافع دوافع لا لتتنفسها هند حفاظاً ولكن لتتنفسها حزناً .

وكما أغلت فى حفاظها أغلت فى حزنها ترى فيه متنفساً جديداً ينضم إلى متنفسها الأول وما كان خطبها باليسير فلا يحزن له ، ولكن حزنها كان كثيراً بالقياس إلى خطبها .

اصطنعت فيه ما يهوله وتلمست له ما يعظمه وما تركت سبباً قريباً أو بعيداً إلا أشعلت به هذا الحزن ليبدو كبيراً كبراً يرضى هذا الصراع الذى حملت عبئيه معاً عبئها وعبء مسافر .

وتعلم هند أن ثمة حزينة حزنها على فقد ثلاثة مثل ثلاثتها أب وأخوين شاع حزنها فكان مضرب الأمثال وسمع به القاصى والدانى .

فتقصد هند قصد الخنساء تريد أن تهون من حزن الخنساء ليعلو حزنها هى ، وتريد ألا يسمع عن حزن الخنساء الناس ليسمعوا عن حزن هند . وجلست هند تُغلى من حزنها وتهول منه كما جلست إليها الخنساء تغلى من حزنها وتهول منه .

فما كان حزن هند حزناً ولكنه كان لوناً من ألوان هذا التنفيس وجدت السبيل إليه هند معبدة فسلكتها كما سلكت من قبل السبيل إلى عقيدتها تكسب

من هذه وتكسب من هذه وتنفس عنها فى هذه كما تنفس عنها فى هذه .

وتمضى هذه الحرب ويدخل الفريقان فى حرب ثانية فتسعى إليها هند باسم العقيدة وباسم الحزن . ألم تكن من أكثر الناس حفاظاً لها ثم ألم تكن من أكثر الناس مصاباً فيها ، فإذا هى على رأس الداعيات المحرضات لا لأنها تعرف هذا الدين الجديد فتكرهه ولكن لأنها انزلقت فى صراعها النفسى وليس من اليسير عليها أن تعود ، ولا لأنها حزينة فقد كان فيما سبق تنفيس لهذا الحزن .

ويجتمع لهند سببان وكانت من قبل ذات سبب واحد فإذا هى تكاد تلفظ مافى نفسها كله وتكاد يزحمها على أمرها مافى قلبها كله فإذا هى فى هذه الحرب داعية ، وإذا هى محاربة وإذا هى شادية وإذا هى شاعرة ، وإذا هى متكلمة يكاد ينطق كل عضو فيها ويكاد يهتز كل عضو فيها . وهى على هذا لم يستطع جسمها بما فيه ومايركب عليه أن يستجيب لصرخات نفسها كلها وكان عبء نفسها أكثر من أن تحمله نفسها فإذا هى تشارك فى أشياء ءثيرة وتصد عن أشياء كثيرة .

وكما يفقد الموتور عقله فقد أفقد هذا الصراع هنداً عقلها ولم تملك وعيها فإذا هى تشق صدر صخر قاتل أبيها لتخرج كبده وإذا هى حين تخرج هذه الكبد تلوكها تحاول مضغها وإذا هى لا تستسيغ هذه الكبد فتلفظها .

وتبرز إلى صفوف المحاربين تحمل سيفاً لم يفعل هذا غيرها من النساء اللاتى كن معها ويجرى فى أثرها فارس من فرسان المسلمين يظنها رجلا ثم يعرف أنها امرأة فيعفى سيفه من أن يضرب به امرأة .

* * *

٢٢

ما كان بيت هند – كما حدثتك – يملى هذا كله أو بعضه فى نفس من درجوا على أرضه أو نشئوا فى ظله ، ولكنه أملاه على هند وحدها ، أملاه عليها وهى امرأة ، على حين أملى غيره على أخ لها وهو رجل .

وهذه الحياة التى انغمست فيها هند لأخيها الرجل قبل أن تكون لهند المرأة بل تكاد تكون لمثل أخيها من الرجال وليست لمثل هند من النساء . ولكنّ أخاها لم يظلمه المجتمع كما ظلمها ، ولاحال بينه وبين ما يريد كما حال بين هند وبين ما تريد ، فإذا أخوها على سجيته ، وإذا هند على غير سجيتها . وكان أبوها ذا نفس سمحة ، وخرجت هند على غير نفس أبيها تحمل نفساً شديدة ، وكان أبوها ليس غريباً عليه أن يَحْمى لدينه لأنه كان من الرائين فى قريش لدينهم ، وكانت هند غريباً عليها أن تحمى لدينها لأنها لم تكن من الرائين فى قريش لدينهم .

ولكن المجتمع لم يظلم أباها كما لم يظلم أخاها فلانا وأسمحا ، يفلت الأخ من عقيدته فيستبدل بها خيراً منها ، ويكاد الأب يفلت هو الآخر من عقيدته ، لولا أن عاجله الموت أو القتل .

وظلم ذلك المجتمع هنداً فلم تلن ولم تسمع ، فاستبدلت بلينها الموروث

شدة ، واستبدلت بإسماحها الموروث عنفاً ، تنمو هذه الشدة فى نفسها وينمى هذا العنف ، وتملك التقاليد هنداً أول أمرها فلا تقوى أن تكون شديدة ولا أن تكون عنيفة ، وتسترخى هذه التقاليد شيئاً بعد شىء فتملك هنداً أن تكون شديدة كما تملك أن تكون عنيفة .

تعنف أول شىء على الفاكه لأنها وجدت وسيلتها للخروج على التقاليد فلم تلبث أن ترد الفاكه عنها حين ملكت حجتها لترده ، لا يعنيها أن يرضى أبوها بغير هذا ولايعنيها أن يجيز أبوها غير ما تجيز .

وترضى نفسها بهذا الرد رِضاً آخر أعمق وأوسع حين ينتهى إليها أن الفاكه قتل مسافراً .

غير أنها تحس أنها رضيت ولم ترض فقد ثأرت من الفاكه على شىء ولم تثأر منه على شىء آخر ثأرت منه لما كان أولا ولم تثأر منه لما كان ثانيا ولقد ملكت أن تثأر فى الأولى فلم تبخل ورضيت ولكنها لا تملك أن تثأر منه فى الثانية فتجزع ولاترضى .

ويثير هذا الجزع وذاك البرم فى نفسها ظلمها الأول على صورة أعنف وأشد فإذا هى قد نسيت رضاها بما مضى لتذكر برمها بما جد .

ولكن العجز عن شىء لا يعنى العجز عن غيره ، فلقد عجزت عن أن تثأر من الفاكه على قتله مسافراً وما هذا بالشىء الذى تهدأ له نفسها ولايطمئن له بالها فتزداد قلقاً إلى قلق وتزداد عناداً إلى عناد وتزداد صلفاً إلى صلف ، والفاكه رجل من الرجال الذين ظلموها ، وأبو سفيان رجل من الرجال وقد يظلمها معهم ، وكان الفاكه زوجاً مضى بعد أن نالت منه ثأراً ولم تنل منه ثأرًا آخر

وأصبح أبو سفيان زوجاً جاء وفى نفسها هذا الثأر الذى لم تنله من الفاكه . فهذا رجل وذاك رجل ، وكان هذا زوجاً وأصبح هذا زوجاً ، يجمع بينهما شبه كبير والزوج الثانى امتداد للزوج الأول وحياتها بينهما موصولة ، تضمر للأول شراً تعرف سببه ، وتقصد الثانى بشر لا تعرف سببه . فلقد كان الأول أهلا لهذا الشر الذى ناله ، ولكن الثانى ليس أهلا لهذا الشر الذى سيناله ، فهى تعرف وتجهل ، ولكنها كانت مع تلك المعرفة وذلك الجهل تفعل ، فعلت الشر بالفاكه وهى تعرف سببه وفعلت شبه الشر بأبى سفيان وهى تجهل سببه ، تشتط عليه ، وهذا من الشر ، وتغلظ عليه ، وهذا من الشر ، وتعيبه بين الناس عيباً يؤذى أبا سفيان وهذا من الشر وتكاد تثير به الناس يوماً وكادوا على أن يفتكوا به وهذا من الشر.

فعلت هذا كله هند تنفس عن نفسها ، لم تفعله قاصدة به إليه وإلا عُدَّتْ امرأة شريرة لا يضمها زوج كأبى سفيان له الجاه والسيادة ، ولكنها فعلته تحتمى بالعقيدة وبالحفاظ للعقيدة ، يظن الناس بها ذلك فيغفرون لها صلتها بزوجها وعنفها به ، ويظن أبو سفيان بها ذلك فيغفر لها صلتها وعنفها به .

لقد أكدت الحياة نفس هند فأقستها عن غير قسوة وحملتها مالم تكن لتحمل ، فإذا هى مظلومة على حاليها : حالها قبل أن تملك وحالها بعد أن ملكت .

لقد انظلمت فى الأولى لتجمع الظلم فى نفسها بعضه إلى بعض ، ولقد انظلمت فى الثانية حين نفست عن نفسها هذا الظلم بعضه فى إثر بعض .

عنف عليها المجتمع فعنفت هى على المجتمع ، عنف عليها المجتمع وهو يملك

الرأى عليها ، فكان عنفه بها نظاماً استساغته وألزمت نفسها به ، وعنفت هى على المجتمع وكان عنفها به رأياً رضيه المجتمع ولم يحاسبها عليه ، فحبست فى نفسها فى الأولى لتتزود ، وفرّجت عن نفسها فى الثانية تمضى ولاتتردد .

* * *

٢٣

وفى غمرة هذا الصراع بين هند ونفسها ، وبين هند وزوجها وبين هند والمجتمع من الرجال ، تلد هند ، وإذا هذا المولود ولد .

لقد سعدت هند بهذا المولود ، سعدت به كما تسعد الأمهات حين يلدن ، ولكنه قد كلف هنداً صراعاً آخر .

ماكرهت هند أبا سفيان فلقد حملت له ما تحمله الزوجة الوفية البارة ، ولكنها كانت تراه زوجاً له حق عليها وتراه رجلا بينها وبينه صراع طويل ممتد لا يهدأ ، يمنعها حق الزوج عليها من أن تغلظ له أو تخالف عن أمره ، ويردها هذا الصراع إلى أن تغلظ له أو تخالف عن أمره ، وهى زوجة لاتملك مايمليه عليها هذا الصراع ، ولكنها حين وجدت نفسها ملكت أن تستملى من هذا الصراع تعنف به على أبى سفيان وتخالف عن أمره باسم هذه العقيدة ومامملكت أن تستملى من هذا يوم أن لم تكن تملك عقيدة تخالف أبا سفيان عليها .

وكان الوليد الذى رزقت به هند ولدا ، وسيشب هذا الوليد ليكون رجلا .

وكما نظرت هند إلى الزوج نظرت إلى الوليد ، تخلص لذاك وتحب هذا ، لايمنعها هذا الإخلاص ولاذاك الحب من أن تذكر أنها بين يدى رجلين وأنها بين يدى صراع وصراع بعد أن كانت بين يدى صراع واحد .

ولقد صارعت أبا سفيان باسم العقيدة وماكان عليها من لوم ، ولقد أخذت

تصارع معاوية ابنها باسم البنوة ولالوم عليها .

وكما ملكت هند فى الكثير أمر أبى سفيان ملكت أمر معاوية كله . فلقد عرفت أبا سفيان رجلا وله بعض شأنه ، ولقد ولدت معاوية ولها كل شأنه ، ولقد أفلحت شيئاً وأخفقت شيئاً مع الزوج ، ولكنها أفلحت فى كل شىء ولم تخفق فى شىء مع الابن .

ولقد خالف الزوج عن رأى هند شيئا ولكن الابن لم يخالف عن رأى هند فى شىء ، لم يعرف هذا الخلاف صغيراً ولم يعرفه كبيراً ، لم يعرفه صبيا يلهو مع الصبيان ولم يعرفه رجلا ذا شأن .

تملى هند على معاوية ابنها وهو أمير الشام فيستجيب ، ويرى الزوج ما يفعل الابن فيعرف أنه عن رأى هند فيطمئن كثيراً ويخزى قليلا ، يطمئن للرأى وصلاحه ويخزى حين يذكر حقه المغصوب مع حق ابنه المغصوب ، وحين يذكر هذا الصراع الذى لم تنهزم فيه هند .

ويفد على هند الابن وكان والياً على الشام فتملى عليه الأم ويملى عليه الأب فإذا رأى الأب من رأى الأم فيطمئن كثيراً ويخزى قليلا ، يطمئن للرأى وصلاحه ، ويخزى حين يذكر حق أبيه المغصوب مع حقه ، وحين يذكر هذا الصراع الذى لم تنهزم فيه هند .

* * *

٢٤

ويخرج الأب من الدين القديم إلى الدين الجديد ، وتبطئ هند فلا تخرج من الدين القديم إلى الدين الجديد ، تحفظ على الزوج خروجه من دينه لأنه لم يعد يمكنها من الخلاف عليه ، ولم تعد هى تملك ما تخالفه عليه .

وتثور حفيظتها لاعن كره فى الدين الجديد ولاعن حب للدين القديم الذى هى عليه ولكن عن هذا السبب الذى خسرته وعن هذا الفقد الذى أحسته فإذا هى شديدة كل الشدة على أبى سفيان ، وإذا هى عنيفة كل العنف بأبى سفيان شدة لاتقوى عليها زوجة لا تجمعها بزوجها إلا تلك الصفة ، وعنفاً لا تملكه زوجة تعرف حق زوجها عليها .

ولكن هنداً كانت تملك ما يسقط عنها اللوم وكانت تملك ما يضع الحجة فى يدها ، وكانت تملك إلى هذين فى موقفها الأخير من زوجها هذه الحسرة التى أصابتها حين أحست أنها فقدت وحين أحست أنها خسرت ، فإذا هذه الحسرة تبعث فيها ثورة عارمة ، ثورة من تجرد عما ملك ، بعد أن سعى الدهر ليملك ما ملك . ثورة من أقام وجوده . وإذا الدهر يهدم عليه وجوده .

ولكن هنداً كانت تجد إلى جانبها فى صراعها مع الزوج من يعينها على هذا

الزوج ، فإذا هى تفقد كل من إلى جانبها ليعين على هذا الزوج وإذا هى بين يدى محنة أخرى تكاد تطوح بكل أمل وتكاد تذهب بكل رجاء وتكاد تخرج بها من الدنيا بعدما ذاقت الدنيا .

وما خافت هند الموت بقدر ما خافت أن تخرج من صراعها خروج المهزوم ، ومانظرت هند إلى دينها القديم بقدر ما نظرت إلى أبى سفيان وهو يخرج من هذا الدين القديم ، ومابكت هند على هذا الدين القديم بقدر ما بكت على أن يكون لأبى سفيان دين ولها دين ، ولايجمع بينهما صراع ولاتكون هى الغالبة فى هذا الصراع .

وسرعان ما تخلت هند عن دينها القديم لأنه لم يعد يشبع نفسها ولأنه سيكتب لها الحياة ولأنه سيجمعها والزوج على شىء ستحرص على أن تكون لها أسبابه دونه ، فتصارع وتصارع تحمل عبئها فى هذا الصراع عبئها وعبء مسافر .

ولكن هنداً كانت قد شاخت نفسها ووجدت صراعها مع أبى سفيان قد شاخ ، ولكنها وجدت صراعها مع ابنها لم يشخ ، فالتفتت عن الزوج إلى الابن تملكه ولايملكها فهى أقوى وهو أضعف وهى أم وهو ابن فأملت عليه لايرد عليها وإذا هو ملك يؤسس دولة وإذا هر ينسى أباه ويذكر أمه وإذا هو إذا اعتزى يقول أنا ابن هند .

ترى هل شفت نفسها هنداً .

لقد دخلت الحياة فطالعها فى أفقها أمل ، شقيت به وحدها راجية آملة ، وشقى به بعض الناس معها قانطة يائسة .

وخرجت من الحياة وقد أشقت ناساً بشقائها الأول وأسعدت ناساً بشقائها الثانى .

أما هى فلم تذق غير الشقاء .

* * *

رقم الإيداع	١٩٨٠/٤٥٩٠
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٧٣٣٧-٥٣-١

١/٧٩/٣٩١

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)